

نماذج بشرية

أحمد رضا حوحو

كتاب الدوحة

نماذج بشرية

أحمد رضا حوحو



نماذج بشرية

أحمد رضا حوحو

تقديم: الأستاذ الدكتور السعيد بوطاجين

كتاب الدوحة 39

يوزع مجاناً مع العدد 83 من مجلة الدوحة سبتمبر 2014

نماذج بشرية

أحمد رضا حوحو

تقديم: الأستاذ الدكتور السعيد بوطاجين

الناشر :
وزارة الثقافة والفنون والتراث - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

العمل الفني للغلاف: سلمان المالك - قطر
الإخراج والتصميم : علاء الألفي - مجلة الدوحة

فهرس الكتاب



مقدمة

نبذة عن حياة الكاتب

اسمه الحقيقي أحمد حوحو، وقد أضيف له اسم رضا، في الحجاز، للتمييز بينه وبين أحد أفراد بني عمومته.
وُلِد رائد القصة القصيرة الجزائرية المكتوبة بالعربية بتاريخ 15-12-1910 في ولاية بسكرة، إحدى حواضر الحركة الإصلاحية الوطنية الجزائرية، وتحديداً في قرية سيدي عقبة حيث ينام الفاتح الإسلامي الشهير عقبة بن نافع الذي ما زال باب المسجد الذي يؤوي ضريحه يحمل علامة من العلامات المميّزة: الباب القديم الذي يعود تاريخه إلى فترة المعزّ لدين الله الفاطمي.
أَمَّ أحمد حوحو الكُتّاب في سنّ مبكرة، شأنه شأن أطفال الأرياف الجزائرية التي عوَدت الأبناء على حفظ القرآن

وبعض التفسير لأسباب تربوية ودينية ولغوية وسياسية. لقد كانت فرنسا الاستعمارية تعمل على محو الهوية والمرجعيات الأساسية التي تتّكئ عليها الأمة حتى يتسنّى لها تشتيتها وتبديد مقوماتها، ومن ثم التحكّم فيها وفق مشيئتها، إذ إن تحييد المرجعيات يسهّل عليها فرض مرجعيات جديدة تؤهِّلها لتوجيه الناس دون مقاومة مقاصدها ومفاسدها المتعاظمة. وكان المرور على الكتاتيب نوعاً من تحصين الذات.

في السادسة من عمره التحق بالمدرسة الابتدائية، والواقع أنه كان محظوظاً مقارنة بأولئك الأطفال الذين وُلِدوا في القرى النائية وفي الأرياف الفقيرة والصحاري الفقيرة التي اكتفت بحفظ المصحف الكريم وتلقينه كمكسب كبير لذلك الجيل، كما أن الالتحاق بالمدرسة ظل عصيّاً في حالات لا حصر لها بالنظر إلى انعدام المدارس القريبة من السكّان، إضافة إلى موقف السكّان من الفرنسية نفسها كلغة استعمارية دخيلة وجب الاستغناء عنها لأنها لسان حال الغزاة الذين لا يؤتمنون.

سافر الشاب أحمد إلى مدينة سكيكدة بشرق الوطن عام 1928 من أجل إكمال دراسته والحصول على الأهلية، بيد أن ذلك لم يكن سهلاً في ظل هيمنة السياسة الفرنسية التفاضلية التي حرمت «الأهالي» من الدراسة والمناصب لاعتبارات

عنصرية. وهكذا ذهب إلى الحجاز عام 1935. وكان ذلك من المنافذ القليلة التي أنقذت كثيراً من الجزائريين الذين ساعدهم الحظ، مع ضرورة التأكيد على الخدمات الجليلة التي قدمها جامع الزيتونة بتونس لمجموعة من المواطنين الذين أصبحوا سياسيين ومفكِّرين ومعلِّمين وكُتّاباً مرموقين، بصرف النظر عن طبيعة الدروس وطريقة تقديمها.

ثم سَجَّل في كلية الشريعة سنة 1937، ولأنه عرف النضال والحركة الإصلاحية قبل سفره إلى الحجاز طالباً العلم، فقد اهتمَّ بالكتابة منذ البدايات الأولى، ونشر أول مقال له في مجلة الرابطة العربية يدين فيه الطرقية التي كانت، من منظور فئة معتبرة من المثقفين ورجال الدين، فقيرة إلى الوعي اللازم، وفاقدة لروح النضال الحقيقي الذي تحتاج إليه الجزائر. كما أنها تمسّ، في جزء من معتقداتها وممارساتها، واقع العقيدة وجوهرها، وكان المقال بعنوان: «الطرقية في خدمة الاستعمار». والحال أن ذلك كان موقف رائد الحركة الإصلاحية الإمام عبد الحميد بن باديس الذي شنَّ عليها حرباً كادت تودي بحياته في إحدى مدن الغرب الجزائري، في الثلاثينيات من القرن الماضي.

تخرَّج أحمد رضا حوحو في كلية الشريعة سنة 1938،

ولأنه كان طالباً متفوِّقاً في دراساته فقد عُيِّن أستاذاً بالكلية نفسها، كما أُسندت له مهمّة أخرى تتمثَّل في سكرتاريا مجلة «المنهل»، وهي مسؤولية أخرى لا تقلّ أهمّية عن الأولى، إلا أنه استقال من منصبه ذلك، ويمَّم شطر مكة ليلتحق بمصلحة البرق، الوظيفة ذاتها التي شغلها في مدينة بسكرة بداية 1928. لكننا لم نجد مسوِّغاً كافياً لذلك، فكان التخلّي عن الكلّيّة والالتحاق بمصلحة البرق أمراً غامضاً.

عاد إلى الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية في 1946، وقد شحذته التجربة بفعل اكتسابه معارف جديدة واحتكاكه بعلماء وأساتذة وباحثين واطِّلاعه الواضح على كتب عربية وأجنبية أهَّلته للنظر إلى واقعه وواقع بلده بعمق، وبمسؤولية من يشعر بأن عليه المساهمة الفعلية في تغيير المسار العام للوضع في الوطن الأسير. هكذا انخرط في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت تضمّ نخبة فاضلة من خيرة رجال ذلك الوقت، وما هي إلا أعوام قليلة حتى أصبح عنصراً بارزاً فيها، وموازاة مع ذلك ظل قريباً من مجاله الأصلي. لقد تَمَّ تعيينه مديراً لمدرسة التربية والتعليم، كما أدار مدرسة التهذيب، قبل أن يُعَيَّن ـ لاحقاً ـ كاتباً عاماً لمعهد ابن باديس.

نشر أول مقال له في جريدة «البصائر» في 25 سبتمبر/أيلول

1946، وكان بادياً للعيان أن له اهتمامات صحافية مثيرة، بالعودة إلى عددها وإلى طبيعتها وطريقة تعاملها مع الموضوعات الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية، وهي- في مجملها- لا تتجاور كثيراً مع ما كان ينشر آنذاك، أسلوباً ومعجماً وفكراً ورؤية، ولعل ذلك مردّه طريقة تكوينه وقراءاته وبصيرته والمرجعيات المختلفة التي كان يؤسّس عليها في كتاباته، كما تدلّ على ذلك بعض آرائه التي بدت مفارقة لما كان قائماً وقتذاك، أو لما كان متداولاً في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

مَثَّل الكاتب الساخر، والملتزم في آن واحد، بلده الجزائر في مؤتمر باريس للسلام في مايو/أيار من سنة 1949. وفي السابع والعشرين من أكتوبر أنشأ جمعية «المزهر القسنطيني» التي كانت تعرض مسرحيات متنوِّعة، ومنها: ملكة غرناطة، بائعة الورود، البخيل. وفي الخامس عشر من ديسمبر/كانون الأول 1949 أسَّس جريدة «الشعلة» التي ترأَّس تحريرها. وقد كان يسعى دائماً إلى مهاجمة مكامن الألم والشر، ما سيتسبب له في متاعب جمّة مع المستعمرين، ومع فئات أخرى مناوئة لموضوعاته ورؤاه.

كما زار الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافيا سنة 1950 رفقة

الروائي والمسرحي كاتب ياسين، صاحب رائعة «نجمة» الذي ذاع صيته في العالم كسارد كبير ويساري متمرِّد، وقد مكث هناك شهرين، ما جعل بعض المشكِّكين يتَّهمونه بالشيوعية رغم انتمائه إلى جمعية العلماء المسلمين. والواقع أنه كان متعاطفاً مع الأنظمة الاشتراكية، مناوئاً للأنظمة الرأسمالية والثقافة الأحادية والخطاب المعياري، كما تشير إلى ذلك مقالاته وملاحظاته التي لا تخلو من الدعوة إلى التجديد والاطّلاع على مختلف الفنون والآداب العالمية. لقد كان، في واقع الأمر، يشكِّل مفارقة، ليس بأفكاره فحسب، بل بهندامه وهزله وفكره وسيجارته وعزفه على العود واهتمامه بالمسرح والفن والترجمة والشعر والقصة والرواية والموسيقى، الأمر الذي لم يكن معهوداً في جمعية العلماء المسلمين التي اتَّسمت بالصرامة والاستقامة.

كان أحمد رضا حوحو وراء تجنيد وتوعية عدد كبير من الطلبة الجزائريين الذين سيتّخذون موقفاً صارماً ونهائياً من الاستعمار، كما عرف بمناهضة الاحتلال والدعوة المستمرة إلى محاربته، وكانت مقالاته سلاحاً لا يمكن إغفال مفعوله التدريجي، شأنه شأن أشعار مفدي زكريا التي ستقوم بدور مهمّ في الثورة التحريرية. لكن النظام الفرنسي ظل يراقبه

لوثوقه الكبير بأنه يشكِّل خطراً فعلياً على كيانه في الجزائر المستعمرة، شأنه شأن مثقَّفين وكتّاب آخرين، ومنهم الكاتب المفرنس مولود فرعون الذي اغتالته منظمة الجيش السري الإرهابية بتاريخ 15 مارس/آذار 1962.

اختُطِف الكاتب الساخر في التاسع عشر من مارس 1956 من قِبَل منظمة «اليد الحمراء»، إحدى الأذرع السرية للمستعمر الفاشي، وسُجِن في حبس الكدية بقسنطينة، ثم حُوِّل إلى جبل الوحش بأعالي المدينة حيث أُعدِم هناك بشكل ظل غامضاً إلى اليوم، لكنه وحشي بالتأكيد، إذ عُثِر على رفاته مصادفة بعد 1962، تاريخ استقلال الجزائر عن استعمار حاقد ومدمّر، وكان مدفوناً في قبر جماعي بإحدى الثكنات الفرنسية القديمة.

هكذا انطفأ نجم كان يَعِدُ بتقديم منجز سردي مهمّ للقارئ لو كتب له أن يعيش سنوات أخرى، لكن الفاشيين كانوا يخطِّطون لمصير آخر مذ سطع نجمه، واتضحت مواقفه من كيان غريب. لقد قَوَّض وعيه طمأنينة المستعمرين، وكان يجب التخلُّص منه.

أعماله ومواقفه

عرف الكاتب الشهيد بكتاباته المتنوِّعة. ويمكن أن تكون مقالاته الصحافية الحادة من الأسباب التي أدّت إلى اختطافه وتصفيته. لقد كانت له سلسلة من المقالات تحمل عنوان: «تحت السياط نغنّي»، وسلسلة أخرى بعنوان: «مسامير» كان ينشرها في جريدة الشعلة، إضافة إلى كتاباته الأخرى في جريدة البصائر، ومنها: «مع حمار الحكيم»، و«الميزان»، وهي المقالات الساخرة التي أَلّبت عليه مجموعة من المعارضين لخطِّه الذي كان مختلفاً عن خطّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من حيث الانضباط والصرامة، ومن حيث الاستراتيجية والمعالجة، إضافة إلى ذلك فقد ظل نقده لاذعاً رادعاً، ما أثار حفيظة بعض المحافظين والاتّباعيين وأولئك الذين أحسّوا بأنهم موضوع كتاباته، أو مكمن الداء. قام أحمد حوحو- إضافة إلى نشاطاته المتعدِّدة- بترجمة بعض الأعمال إلى العربية، ومنها: ملاحظات مستشرق مسلم، حيوية اللغة العربية، وأهرام مصر، كما اهتمّ بالمسرح والموسيقى والنقد، إذ كان عازفاً على آلة العود وعضواً في فرقة. كما كان لنقده اللاذع أثر كبير، ما لم تستسغه فئة معتبرة من الوسط

الثقافي، إضافة إلى ذلك فقد كان من دعاة التجديد والثورة على التقاليد الأدبية الباهتة، مع إلحاحه الشديد على ضرورة ترقية اللغة العربية بتخليصها من الشوائب والتبعية والخطاب اليقيني والمعجم المتواتر الذي يحمل دلالات مكرَّرة لا تفي بغرض العصر ومشكلاته الحقيقية.

كما ظل ينادي بضرورة الاغتراف من الآداب والأفكار الغيرية التي تسهم في تغذية الموروث وتطويره حتى يصبح دالّاً ومعبِّراً عن روح العصر. يقول في هذا الشأن: «هناك مذاهب عديدة جديدة في الآداب والفنون من الواجب معالجتها ودراستها والسير على غرارها، ومن العبث إهمالها لأنه لم يكن لنا حظ في إيجادها وخلقها، ومن التعصُّب الذميم أن ننكر النافع الجيد من مذاهب الغير». لقد كان في صميم مفاهيم الاتّباع والإبداع، أو النقل والعقل، كما سنجدها عند أدونيس وبعض الحداثيين المعاصرين.

وكان الكاتب ينظر إلى الأدب والفن نظرة جديدة بحكم ثقافته وتكوينه، إذ ما فتئ يحمّل الكُتّاب مسؤولية المجتمع وعوالم القيم المثلى التي وجب الدفاع عنها وترقيتها، ذلك أن نظرته ارتبطت بالجانب المثالي، ولذلك عَدَّ الآداب والفنون مرايا عاكسة لكيان الأمة وجوانبها الإنسانية والروحية التي

تحصّنها وتمثّلها أحسن تمثيل. أما أهمَ قضية ظلت تشغله، من الناحية الأدبية، فتتمثّل في طبيعة الكتابة نفسها. ربما لاحظ شيئاً من المحاكاة الساذجة في ما ينشر آنذاك، ولذا أعلنها صراحة، وبجرأة لم يستسغها بعض معاصريه الذين نظروا إليه ببعض الريب والازدراء: «أمّا هذه الجثث الفاقدة الروح التي اصطلح الناس على تسميتها أدباً وفناً، فيجب أن ننزل عليها بمعاولنا دون شفقة ولا رحمة، وننشئ بدلها أدباً وفناً حَيَّيْن». ويضيف بنوع من اليقين: «إن المرء ليزدهي بآدميته حين يلقي بنفسه في غمار هذه الآداب العالمية». ما يجعلنا نستنتج أن قراءاته للآداب الأوروبية والأميركية هي التي جعلته يتّخذ موقفاً مماثلاً.

خلَّف أحمد رضا حوحو أعمالاً أدبية اختلف حولها النقّاد والدارسون من حيث التصنيف والقيمة، بحسب منطلقاتهم وأدواتهم ورؤاهم الجمالية والفنية، لكنه من الصعب تجاهل مكانتها إن أُخِذت في إطار سياق إنتاجها، وما قَدَّمته من إضافات نوعية للتجارب السابقة، أو لما سُمِّي (إرهاصات القصة)، ومن هذه العناوين النثرية:

- غادة أم القرى (قصة طويلة) ـ1947ـ
- مع حمار الحكيم (مقالات قصصية) 1953ـ

- صاحبة الوحي (قصص) 1954 -
- نماذج بشرية (قصص) 1955 -

كما ترك إرثاً من المقالات النقدية والصحافية ومسرحيات لم تُجمع في كتب مستقلة رغم قيمتها وفائدتها، مع أن هناك محاولات لجمعها وطبعها من قِبَل بعض الأفراد والمؤسَّسات، كما أوصت بذلك شخصيات أدبية وهيئات علمية في مناسبات كثيرة، وقد تساهم هذه النصوص- إن كُتِب لها الظهور في وقت ما- في إضاءة جوانب كثيرة من حياة الكاتب ومواقفه السياسية والفنية، كما يمكن أن تضيف قبساً للمرحلة التي عاش فيها جيل بأكمله.

نماذج بشرية

كُتِبت هذه النصوص المتنوِّعة منذ قرابة ستين سنة، وهو وقت كافٍ لتغيُّر الأذواق والأدوات النقدية والمقاربات، لذلك من الأنسب أن نأخذ في الحسبان نقاطاً مفصلية قبل تقديمها للقارئ الكريم: زمان الكتابة وزمان القراءة، إضافة إلى السياق وثنائية المُقيس والمَقيس عليه، وذلك تفادياً لأي إسقاط أو إجحاف قد يلحقان ضرراً بكتابة عَبَّرت عن انشغالات، بالأدوات التي كانت متاحة في زمانها.

كانت الجزائر في تلك الفترة المظلمة تحت حكم احتلال عمل على تعميم الجهل ومحاولة محو اللغة العربية من الخارطة الجغرافية للبلد؛ ومن ثَمَّ كان ظهور كاتب يكتب بالعربية هبة من الخالق وسعادة مباركة يتعذّر أن تتكرّر دائماً. الكتابة نفسها لم تكن متاحة إلاَ لفئة قليلة ممن نجوا- ولو نسبياً ومرحلياً- من الحصار الذي ضُرِب على الجزائريين. لذا يمكن اعتبار نصوص «نماذج بشرية» كرامة من الكرامات التي جاءت في وقتها، أو قبل الوقت بسنين، ورغم أننا قد ننظر إليها اليوم من زوايا أخرى، ومن منطلقات جمالية مختلفة للوصول إلى أحكام مختلفة، إلاَ أن ذلك لن يقلِّل من أهمّيتها التاريخية وريادتها في فترة كانت فيها الكتابة معجزة حقّة.

هناك في مقدّمة الكتاب ملاحظات ثمينة أوردها الكاتب نفسه، وقد تُعَدّ بمثابة فواتح تشير إلى الكيفية السردية التي أرادها أحمد رضا حوحو. وبصرف النظر عن أي تقييم أو استثمار لما ورد فيها من مواقف قد تكون مصدر خلاف وجدال، فإن وجودها يظل ذا دلالة من حيث إنها مفسّرة للكيفية السردية وموجّهة للمتلقّي. يقول الكاتب: «لم أعمد في عرض هذه النماذج على الخيال فأستخدمه في التنميق والتزويق، أو إلى التحليل النفسي فأسخِّره لإثبات فكرة أو

إدحاض أخرى... أجل، إني لم ألجأ إلى كل ذلك، وإنما التجأت إلى المجتمع، وانتزعت من مختلف طبقاته نماذج عشت مع بعضها وسمعت عن بعضها».

تعالج النصوص الواردة في الكتاب قضايا اجتماعية وثقافية وسياسية ودينية متنوِّعة تأسيساً على خيار سردي يتراوح بين التمثيل والعرض، ويبدو أنها جاءت لتقوم بوظيفة ما من حيث ابتعادها عن التنميق، أي أنها ملتزمة بقضايا اجتماعية أكثر من التزامها بالترف الذهني. لهذا اتَّسم أغلب السرد بالتسجيل والتبطئة ووضوح اللفظ والعبارة والمقصد، على غرار السرد العربي الكلاسيكي الذي عُرِف في التجارب الأولى، سواء مع محمود تيمور أو قبله، كحال المقامات التي كانت من التجارب القصصية الرائدة التي ستؤثِّر لاحقاً في المنجز السردي برمّته، رغم أنها سلكت طريقاً مختلفاً في تعاملها مع الزخرفة.

كان الكاتب- من وراء بعض حكاياته القريبة من التقرير في حالات كثيرة- يريد الإشارة إلى مظاهر سلبية مَيَّزت محيطه في فترة ما، ومن ثم معالجتها بالطريقة المناسبة، ومن هذه السلبيات المهيمنة التي كانت تحتاج إلى ضرورة التنبيه إلى مخاطرها: مسألة الدجل والشعوذة (الشيخ رزوق)،

والانحرافات الأخلاقية (عائشة)، (السكير)، والحيلة (العم نتيش)، والجهل (سيدي الحاج)، والهذيان (الأستاذ)، والتدهور (سي زعرور)، والكنود (رجل من الناس)، والغرور (فقاقيع الأدب)، والزعامة المغشوشة (الشخصيات المرتجلة)، وعبقرية الشارع (يحيى الضيف)، والإرادة (التلميذ).
وهي موضوعات يمكن أن تكون متواترة ومشتركة بين الكتّاب في كل زمان ومكان، بيد أن شكل معالجتها يظل نواة أساسية، من حيث إن الكيفية مسألة جوهرية في تعزيز الفرادة وتقوية الاستثناء. لذلك يمكن القول إن قيمة «نماذج بشرية»ـ إن احتكمنا إلى تاريخ وسياق إنتاجهاـ تكمن في الخيارات الموضوعاتية والمتغيِّرات السردية الجديدة التي راهن عليها الكاتب، إضافة إلى خاصية قاعدية تتمثَّل في الرؤية المفارقة للنموذج المتواتر آنذاك.

لا يمكن القولـ بطبيعة الحالـ إن نصوص أحمد رضا حوحو استثنائية من ناحية الشكل، جديدة كلها وخارقة، ذلك أن هناك نصوصاً عربية سبقتها إلى التحديث والتثوير لاستفادتها من الكتابة المحلّية والغيرية، وخاصة في التجربة المشرقية مع الكاتب محمود تيمور الذي اقتبس زاداً معتبراً من التقنيات القصصية للكاتب الفرنسي موباسان، محاولاً

بذلك تطعيم السرد القائم في المنجز القصصي السابق. غير أن تجربة حوحو تُعَدّ، بدورها، إضافة نوعية للجهد السردي الجزائري، ولبعض ما كُتِب في البلاد العربية كذلك.

نشير في سياق هذا التقديم إلى أن دراسة كيفيات تمفصّل المعنى في مختلف النصوص تستدعي مراعاة اعتبارات كثيرة لا يمكن دونها أن نَفِيَ الكاتب حقّه. قد تُوَجَّه إلى تجربته، القصيرة نوعاً ما، تأسيساً على الذائقة والمسارات السردية الحالية، ملاحظات تخصّ مسائل تتعلّق بالرومانسية والواقعية الإملائية التي ميَّزت بعض القصص والمقالات القصصية، أو بعض المقدمات التوضيحية غير الضرورية للمتن الحكائي الذي يستطيع تجاوزها دون المساس بالبنية والمتون، إن نحن انطلقنا من منظورات نقدية جديدة، الشيء نفسه يتعلَّق ببعض الخواتم المفاجئة التي لم تُبْنَ على حبكة مكتملة النسيج، أو على علاقات سببية منطقية تسوَغ النهايات السريعة التي توحي بأنه كان يريد التخلُّص من القصة بأقلّ التكاليف السردية الممكنة، إن لم يكن بعض التقليد الأدبي هو الذي فرض عليه تلك الخيارات التي قد لا يستسيغها الموقف النقدي.

لكن هذه المواقف من نصوص عمرها ستون سنة، مؤسّسة للقصة القصيرة في الجزائر، مؤثّثة ثقافياً ومعرفياً، كما تعكسه

التناصات الخارجية الكثيرة، سرعان ما تتبدَّد عند مراعاة الجهد الذي بذله الكاتب في فترة تميَّزت بالجهل وانتشار الأمّيّة في بلد شهيد كانت فيه العربية تنحسر باستمرار أمام المدّ اللساني الفرنسي، وأمام تراجع لغة المواطن. ثم إن الإضافات التي جاء بها في تلك الفترة ليست بالهيّنة أو الباهتة بحيث يمكن القفز عليها أو تجاهلها. لقد أحدث الكاتب الشاب ثورة حقيقية على الأساليب المتوارثة الغارقة في الوعظ، كما نصب عداء للأساليب المستهلكة، كما يشير إلى ذلك، وكما يؤكِّد النقاد والأكاديميون الذين بنوا آراءهم على الموازنة كآليّة مهمّة تعمل على إبراز الجوانب التفاضلية.

إضافة إلى ذلك فقد أعاد النظر في البناء القصصي الكلاسيكي الذي كان مهيمناً على بعض الإرهاصات الأولى، كما تعامل مع اللغة من زاوية أكثر وعياً بحقيقتها ووظيفتها الأدبية والحضارية، إذ اعتبرها عنصراً نووياً وجب خرقه من الداخل من أجل فسح مجال أوسع للدلالات والأفكار التي لا تنبني بالضرورة على حقل معجمي مُحَدَّد محدود، نقلي ويقيني، مع ما ينجرّ عن ذلك من استنساخ آلي وغير ضروري للمرحلة، وللتجارب الماضية التي وجب غربلتها. لقد كانت رؤيته تلك متقدِّمة من حيث إن اللغة كانت عائقاً فعلياً أمام التنويعات

والمتخيَّل الذي ظل حبيس الاستعمالات الثابتة والمعاودات التي غدت قاعدة ومرجعاً يقينياً، ما جعل العناصر الفنية تتقهقر أمام النقل والنموذج المتوارث عبر العصور. إضافة إلى ما تقدَّم فإن الكاتب يكون قد ارتقى بالسرد إلى درجة أعلى مقارنة بسابقيه، وربما كان أكثر إدراكاً لأنواعه ووظائفه، رغم غلبة السرد التمثيلي.

«نماذج بشرية»، في واقع الأمر، هي تحيين ملموس لمنظورات أحمد رضا حوحو النقدية ومواقفه الفعلية من مسائل آمن بها أيّما إيمان، وكتب عنها مقالات صحافية نشرها هنا وهناك في فترات متباعدة، سواء أكانت مواقف من المجتمع أم كانت من الثقافة والكتابة والفن واللغة والرؤى والأشكال التعبيرية المهيمنة على تقليد أدبي، كان بحاجة إلى تحديث جذري لتطعيمه وتقوية كيانه درءاً لأي تبديه أو فجاجة، أم من العقيدة نفسها كمرجعية استثمرت في سياقات تاريخية لمقاصد ذات بعد ضيِّق ذي علاقة بالجانب النفعي الصرف، ما أدّى إلى ظهور الشعوذة والدجل والخرافات والسحر، وهي عناصر أفسدت النص بتأويلات لا علاقة لها به. وكان أن أعلن الكاتب حرباً على تلك الفئة المنتفعة من ممارسات تشوِّه العقيدة.

يجب التنبيه ـ أخيراً ـ إلى أن ما ورد في كتاب «نماذج بشرية» للأديب الشهيد أحمد رضا حوحو لا ينتمي كله إلى فن القصة القصيرة كنوع له خصوصياته وهويته ولغته وتقنياته. هناك، في حقيقة الأمر، عدة أنواع متفاوتة: فصل من مسرحية: (الأستاذ)، مقال قصصي (يحيى الضيف)، التلميذ (مقال توفيقي)، فقاقيع الأدب (مقال نقدي)، الشخصيات المرتجلة (مقال نقدي)، سيدي الحاج (مقال قصصي)، وأما المواد الأخرى فيتوافر أغلبها على تقنيات القصة المتعارف عليها عربياً وعالمياً، بصرف النظر عن طبيعة السرد وبنائه وكيفياته ومستواه، لأن ذلك يرتبط بمستويات التلقّي وبالخلفيات الجمالية التي يتمّ التأسيس عليها في المقاربات النقدية، وهي كثيرة ومتفاوتة بالنظر إلى مرجعياتها.

«نماذج بشرية» كتاب يستحقّ أن يُقرأ بسبب مجموعة كبيرة من أفضاله المميِّزة له، ذلك أن الكاتب قام بجهود مضاعفة لمراجعة جماليات القصة وجوانبها اللغوية كما عرفت في الجزائر. وهناك ـ إضافة إلى تجاوز المتواتر ـ رغبته في خدمة قضيته النضالية التي تبوّأت انشغالاته مذ كان صغيراً: هناك، عبر العصور والأمصار، أدباء على المستوى الدولي ضحّوا ببعض القيم الفنية للإعلاء من شأن قضاياهم

الاجتماعية والسياسية والوطنية والإنسانية، وهم كثيرون. لذا، من المهمّ أن نولي اهتماماً خاصاً لهذه الاعتبارات، ثم إن المؤلِّف عاش في فترة قَلَّ فيها من يعرف القراءة والكتابة.
وإذا كانت هناك تضحية بالاستعارة والمتخيّل والترف البلاغي والذهني فلهذا النهج السردي أسبابه السياقية المشار إليها، ومع ذلك، فإن لهذا الكتاب منافعه الكثيرة كمدوّنة عكست تقليداً أدبياً ظهر في شمال إفريقيا في الخمسينيات، وفي ظل حصار استعماري كاد يقضي على مقوّمات الأمة بعد احتلال دام 132 سنة من التعذيب والتقتيل والتدمير والمحو: الكتابة في ذلك الوقت المؤلم هي- في حَدّ ذاتها- إنجاز وانتصار كبيران ليس من السهل تحقيقهما، وهنا مكمن قوة الأديب الشهيد رضا حوحو رحمه الله، وكل الذين كتبوا عن قضيتهم، وعيون المحتلّ تنتظر الوقت المناسب لتنتزع الحياة منهم. أمَا الكتابة باللغة العربية، وبذلك الوقار، وبتلك المعرفة والملكة، فلم تكن سوى حلم بعيد، أو ما يشبه الكرامة والمعجزة.

الأستاذ الدكتور: السعيد بوطاجين

الجزائر، أوغسطس/آب 2014

إلى الكُتَّاب

يجب أن نتكلَّم كلاماً صادقاً، وأن نفكِّر تفكيراً صائباً، دون أن نحاول جلب الآخرين إلى أذواقنا وعواطفنا...

إن ذلك لَهُوَ العمل الجليل...

لابروبار

إلى القرّاء

يقول بعض الفلاسفة: إن العقول سواء من حيث الخلقة، وإنما يمتاز بعضها عن بعض بالتكيُّف والتوجيه، فيسمو البعض منها إلى أن يصل ذرى الرفعة والسمو، وينحدر البعض إلى أن يصل الدرك الأسفل من الجمود والانحطاط. ونحن لا تعنينا هذه العقول، أكانت سواسية أم لم تكن؛ لأننا لسنا بصدد تحليل العقول وإثبات مقاييسها، وإنما الذي يعنينا هنا هو عرض وتصوير مجموعة من الطباع البشرية، في مجموعة من البشر منتقاة من صميم المجتمع.

وإننا لا نشكّ في أن هذه الطباع ليست سواء، وإلا لكانت خاضعة خضوعاً أعمى لتأثيرات البيئة والنشأة والتعليم، تُسيِّرها طبقاً لهذه التأثيرات، وتتكيَّف وفقاً لهذه النشأة التي فرضها

عليها المجتمع. وإننا لا نجد هذه الطباع تَسير في طريق مفروض من بيئة، أو تتّجه اتِّجاهاً مفروضاً من نشأة، إلا بقدر ما توجبه الضرورة. وكثيراً ما تتمرَّد فتكسر القيود، وتنطلق في أجواء رحبة لا تلوي على شيء، تدفعها غرائزها إلى تحقيق أمانيها المختلفة غير مبالية بقوانين البيئة وتعاليم النشأة. ولو لم تكن هذه الطباع متباينة بعض التباين تتمتع بشيء من الحرّية، لخلا المجتمع من هذه النماذج النادرة الطريفة، ولما وجدنا هذه الضحية من ضحايا المجتمع تكسرقيود بيئتها، وتتّخذ من الوطنية ديناً يهديها سواء السبيل، ولَما تعرّفنا إلى هذا الفقيه الطاعن في السنّ الذي يتّخذ من شرع الله حانوتاً لبيع الجرائم، ولما كانت هذه النماذج البشرية التي نقدِّمها للقراء.

ثم ماذا؟ ثم إني لم أعمد- في عرض هذه النماذج- إلى الخيال فأستخدمه في التنميق والتزويق، أو إلى التحليل النفساني فأسخِّره لإثبات فكرة أو إدحاض أخرى. أجل، إني لم ألجأ إلى كل ذلك، وإنما التجأت إلى المجتمع، وانتزعت من مختلف طبقاته نماذج عشت مع بعضها، وسمعت عن بعضها. نماذج حيّة أقدّمها للقارئ لعله يتوصّل بها إلى تفهُّم بعض طباع مجتمعه، فيلمس أنبل نفس في أحقر شخصية،

ويلمس الإيمان القوي في قلب الرجل الضالّ، والزيغ والإلحاد تحت عمامة رجل الشرع. إن المجتمع البسيط هو خير من يصوِّر الطباع على فطرتها؛ لأنه خاضع للطبيعة، والطبيعة وحدها، يسيِّره ناموس الفطرة وحده، لا يعرف التوجيه المقعد ولا التسيير المهذَّب.

ولهذا سنجد شخصيات نماذجنا يفهمون بعض الحقائق على طريقتهم الخاصة، ويستنتجون بعض النتائج على أسلوبهم الخاص أيضاً، وقد يبدو لنا تفهُّمهم للحقائق خاطئاً واستنتاجهم للنتائج ضعيفاً؛ وذلك لأننا سنقيس تفهُّمهم واستنتاجهم بمقاييس العلم والعقل المهذَّب، وسنحكم عليهم حكماً خاطئاً لأننا سنخضع في حكمنا إلى قواعد وأصول تعلَّمناها، وفرضها علينا العلم والعقل المثقَّف، مع أن هذه الشخصيات توصَّلت إلى ما توصَّلت إليه على ضوء فطرتها، وهضمته بجهاز طبيعتها في محيطها الضيق وبيئتها المحدودة، مدفوعة بدافع الغريزة إلى إبراز البكر من كوامن النفوس وألوان الطباع.

أحمد رضا حوحو

قسنطينة في 1955/9/30



أحمد رضا حوحو



الشيخ رزُّوق

الشيخ رزُّوق رجل في العقد السادس من عمره، ضخم الجثّة، كثيف اللحية، أسمر اللون، ذو مهابة ووقار، يخشاه الناس ويحترمونه، تدور حول سيرته شبهات لم يصدقها إلا نفر قليل؛ حيث يتّهمونه بالقيام بأعمال مالية غير مشروعة، ويقولون إن في استطاعته أن يحرم الابن من إرث أبيه إذا ما قدّم له مبلغ من الأوراق المالية... ولكن أغلبية مواطنيه تعتقد أنها مُجَرّد إشاعات كاذبة يروِّجها حُسّاد الشيخ وناكرو فضله، فهو لا يعرف سوى داره، والمسجد، والطريق بينهما.

تناول الشيخ طعام إفطاره على عجل وهو لا يزال يتمتم بالبقية الباقية من تسابيح وِرْد الصباح الذي اعتاد أن يتلوه يوميّاً عقب صلاة الصبح. ثم أحضرله الخادم فنجاناً من القهوة الساخنة أخذ يحسوه بسرعة، وهو يحثّ الخادم على إحضار بقية ملابسه وسجّادة الصلاة التي لا تفارقه في حِلّه وفي ترحاله. وأخذ يستعد لمبارحة المنزل وقد تناول عصاه ومسبحته، وما كاد يبارح غرفته حتى أدركته زوجته متذمِّرة: ما هذا! ألا تستطيع حتى أن تتناول طعام إفطارك في راحة؟ أدائماً أعمال الناس؟ لا أدري أية فائدة تجنيها من وراء هذه المتاعب كلها التي صدّتك عن العناية بأهلك وأولادك؟!

وما كان من الشيخ إلا أن رمقها بنظرة حادّة، وأجابها والغضب بادٍ على قسمات وجهه: أي شيء أستفيده من الناس؟! أتخالين زوجك مثل أولئك الغافلين الذين ألهتهم أوضار المادة الدنسة عن أعمالهم الربانية، وأشغلتهم بطونهم عن الآخرة؟ أنا أخدِم الناس لوجه الله: أخدِم الحق الضائع، وأحاول جهدي إرجاعه إلى نصابه.

ثم حوقل الشيخ واستغفر ربه واسترسل يقول: لا تُدْخِلِي على نفسي الرياء أيتها المرأة، اتقي الله، أتريدين أن تضيعي أجر

عملي، وأن تبدّلي ثوابي عقاباً بأحاديثك هذه؟

وما كادت زوجه الساذج تعي هذه المواعظ حتى تأثرت وخشيت بطش ربِّها ونقمه إذا ما صدَّت هذا الرجل الصالح عن القيام بأعماله الربّانية، وانهالت على يده تقبِّلها وهي تردِّد: ربنا يبقيك ويحيطك بعنايته يا سيدي، حقّاً إن هذه الدنيا لا تساوي جناح بعوضة. وكأن الشيخ استراح واطمأنّ قلبه إلى هذه النتيجة فأبدل قطوبه بابتسامة عريضة، وتوجَّه لفوره إلى الشارع وهو يداعب حبّات مسبحته التي لا تفارقه لحظة واحدة في غدوه وفي رواحه، وذهب يتأرجح في مشيته وهو في طريقه إلى ركنه المنعزل في المسجد الذي يسمّيه مكتب أعماله الخيرية، والناس تقصده من كل جانب مُنكبّة على تقبيل يده التي يجود عليهم بها بكل سخاء، طالبين منه الدعوات الصالحات، والنساء يرمقنه من وراء شبابيكهن الضيقة مبتهلات إلى الله أن يقضي حوائجهن ببركة هذا الرجل الصالح الذي يقضي جلّ حياته في المسجد ما بين العبادة وإرشاد الناس إلى ما فيه الخير والصلاح.

تربَّع الشيخ رزُّوق على سجّادته بعد ما قام ببعض الصلوات، وما كاد يستقرّ به المقام حتى تقدَّم نحوه شابّ في ربيع

الحياة، رحَّب به الشيخ، وانكبّ الشاب على يده يلثمها، وفي الوقت نفسه دسَّ فيها شيئاً، رمقه الشيخ بنظرة فاحصة حتى إذا ما تأكَّد من ارتفاع قيمته أسرع إلى إخفائه في طيّات جبّته الفضفاضة، وقابل هذه التحية بابتسامة لطيفة، وأقبل على الزائر يسأله ويمازحه وهو يتوسَّم الخير العميم من ورائه، وبادره قائلاً: خير إن شاء الله يا ابني، ماذا تريد؟

ـ المسألة الأولى نفسها يا سيدي، التي أخبرتك عنها سابقاً.

قطّب الشيخ جبينه كعادته كلما انتقل من الدعابة والمزاح إلى العمل الجدّي وقال: إن أشغالي كثيرة يا ابني، وأجدني معذوراً إذا ما نسيت ما حدَّثَتني به سابقاً، فهل تسمح وتعيد على مسامعي حديثك دون أن تهمل أدنى تفصيل، فإنه كثيراً ما يكون للتفصيل الضئيل أهمّيّة كبرى لا يدرِك كنهها إلا الراسخون في المعرفة. سكت الشاب مليّاً، ثم تكلَّم بصوت تشوبه رجفة: كنت أخبرتك ـ يا سيدي ـ أن لأختي طفلاً من زوج أجنبي عن أسرتنا، توفِّي والده منذ زمن، ولم يترك له شيئاً يُذكر من متاع الدنيا، مع أن المرحوم والدي ترك ثروة كبيرة تعرفونها جيداً.

ـ أجل... إني أعرف المرحوم والدك حقّ المعرفة، وأعرف

جيداً ثروته، رحمه الله فقد كان رجلاً صالحاً، وكان من أعزّ أصدقائي. استمِرَّ في حديثك. ثم ماذا؟ واستمرّ الشاب يقول: ورثت أختي قسطاً وافراً من مخلَّفات الوالد، وهي الآن تنفق من ريعها على ابنها. ولا مانع لدي في ذلك، ولكن إذا ما أدركتها الوفاة يوماً ـ وهي مصابة بمرض خطير استعصى علاجه على الأطباء ـ فإن ابنها يرثها؟

ـ ما في ذلك شك، يرثها، حقّه يا بني، لا يمنعه مانع.

ـ وبهذا يستولي هذا الأجنبي على جانب كبير من ثروتنا ومخلَّفات والدنا. وسكت الشاب، فقد اختنق صوته من شدّة الاضطراب، ولكنه تشجَّع أخيراً وقال: إني أريد منع هذا الولد من إرثنا... استغرق الشيخ في لجّة من التفكير دامت بعض ثوانٍ، ثم قال: إنك مقدم على عمل خطير. إنك مقدم على منع وارث شرعي من إرثه الشرعي!

ـ نعم يا سيدي، أنا أعرف جيداً ما أنا قادم عليه، وإني مستعدّ لدفع اللازم، لذلك...

ـ الحقيقة أن هذا الطفل يُعَدّ أجنبيّاً دخيلاً على أسرتكم.

ـ نعم يا سيدي إنه كذلك...

ـ لقد افتكرتك الآن. إنك حدثتني منذ أيام في هذا الموضوع،

وكنت طلبت منك تأخيره إلى أن تحين الفرصة المناسبة.
ـ لقد حانت الفرصة يا سيدي، وسافَرت أختي مع طفلها إلى زيارة بعض الأقارب، وستمكث شهراً كاملاً.
ـ أسافرت حقّاً؟
ـ نعم ـ يا سيدي ـ سافرت.
واستغرق الشيخ مرة ثانية في تفكير عميق، وهو يقوم ببعض الحسابات يسجّلها بحبّات مسبحته، إلى أن اطمأنّ قلبه إلى النتيجة. رفع رأسه وقال بصوت خافت: خمسمئة ألف فرنك. وعموم المصاريف اللازمة عليك، وهذا التخفيض من أجل المرحوم والدك، فقد كان صديقي، ويعزّ عليّ أن أرى شخصاً أجنبيّاً يتمتَّع بمال تعب عليه ليتركه لأولاده خاصة، لا يشاركهم فيه مشارك.
ـ ولكن المبلغ كبير يا سيدي!
ـ أبداً... أبداً... (صرخ الشيخ) أنسيت ما ستجنيه من ذلك؟ فإنني سأُملكك مناب أختك الذي ورثته من أبيك بهذا المبلغ.
ـ حسناً يا سيدي قَبِلْتُ.
ـ أحسنت إذ قبلتَ، إذن، أحضرلي النقود وافية، فأنا دائماً

أستوفي أجري مقدَّماً. ثم لا تنسَ ما قاله الرسول (صلى الله عليه وسلم): «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان».

ـ هذا حق... وإني مستعد بالمبلغ، ولكن...

ـ لكن ماذا؟ تكلَّم.

ـ أقصد إذا ما كنت واثقاً من النجاح...

ـ النجاح! هذا أمر ليس فيه أدنى شكّ ولا ريب، أنا لا أُقدم إلا على القضايا الناجحة. لم أعوِّد عملائي الفشل ولو مرة واحدة. فأنا، في هذه الأيام القريبة، ملَّكت زوجاً من ثروة زوجته بعملية بسيطة، ثم طلّقتها منه، وهو اليوم ينعم بالمال والحرّية، ولكنه دفع لي ضعف ما طلبت منك تقريباً، والحديث بيننا طبعاً... فأنا ـ يا بنيّ ـ أعمالي مُتقنة والحمد لله...

غاب الشاب لحظة، ثم عاد يحمل رزمة من الأوراق المالية ناولها للشيخ بيد مرتجفة، وأخفاها هذا في لمح البصر تحت جبّته، وأخذ يعدّها وهو يتحدّث. وللشيخ مقدرة عجيبة على القيام بمهمّة الحساب والمحادثة في آن واحد؛ فقد كان أعجوبة زمانه في اتّقاد الفكر، وسعة العقل. وبعد ما استوثق من صحّة عددها ألقى عليها نظرة فاحصة، سرى

تيّارها السحري في نفسه، ولم يستطع إخفاء سروره، وعلت شفتيه ابتسامة دلّت على غبطته ورضاه، وللمال سرّ عجيب في نفس الشيخ. ثم ما كان منه إلا أن جذب الشاب من طرف ثوبه وهمس في أذنه: اسمع... اذهب حالاً إلى منزلك وأخْلِ الدار من كل كائن حيّ. أسامع! لا أريد كائناً من كان، أرسل والدتك عند بعض الأقارب، وسآتي بجهازي التام المكوَّن من والدتك وأختك والشهود المعروفين.

ـ والدتي وأختي؟

ـ أجل ،لا أعني والدتك وأختك الحقيقيتين، بل أعني اللتين تقومان بدور الوالدة والأخت أمام القاضي، وستبيع لك أختك منابها، وتعترف أنها تسلَّمت النقود كاملة، وسيشهد الشهود، وينتهي كل شيء، وحينما ينتقلان إلى دار البقاء يمكنك إبراز حججك والاستيلاء على أملاكك دون أن يعارضك معارض. أفهمت؟ انهض، وأسرع إلى عملك، سألحق بك بعد صلاة العصر... نهض الشاب متألِّماً مضطرباً، وبقي الشيخ مسروراً يذكر الله ويوحِّده، ثم قام يعدّ نقوده مرة ثانية، وما كاد ينتهي حتى دوّى في المسجد صوت أذان الظهر، فأسرع الشيخ في

إخفاء تلك الرزمة من الأوراق في جيب محكم، وقام يستعدّ لصلاة الظهر، وهو يتذكّر ما بقي لديه من المعاملات ويقدِّر- في الوقت نفسه- ما ستدرّ عليه من الأرباح...

***



عائشة

عائشة امرأة ككل النساء الجزائريات، واحدة من آلاف النساء اللائي يموج بهن المجتمع الجزائري المظلم، لم تتخرّج في مدرسة لاشرقية ولا غربية، ولم تتلقَّ أية تربية خاصة أو نشأة معينة، عدا التربية الفطرية والنشأة المحافظة المفروضتين من هذه البيئة الجزائرية الوحيدة التي لا تعرف التطوُّر ولا التغيُّر. وعاشت عائشة في محيطها الضيق المظلم لا تعرف عن العالم الخارجي شيئاً، ولا تعرف عن نفسها إلا أنها عورة يستحي ذووها من ذكر اسمها واسمَيْ والدتها وعمّتها، فهن جميعاً يكوِّنَّ نوعاً خاصّاً من المخلوقات لم تفهم كنهه، ولم تحاول

أن تدرك كنهه، ولكنها تعلم حقّ العلم أن والدها وغيره من رجال الأسرة لا يتلفظون بهذا الاسم إلا مقروناً بكلمة اعتذار، «العباد» يطلقون عليهن جميعاً اسم يقصد جميع نساء «عبادي حشاك». وكثيراً ما سمعت والدها يتحدّث مع جاره فيقول: الأسرة، فيعتذر عن ذكر أسمائهن كما يعتذر حينما يتلفّظ بلفظ قذر أمام شخص محترم.

تعودت عائشة هذه النشأة، وألفت هذه المكانة الخاصة في المجتمع، أو قُلْ إنها ورثت هذه المكانة كما ورثتها والدتها عن السابقات من النساء منذ عهد قديم. هي- إذاً- كائن تافه لا مسؤولية له في الحياة، بل إنها أتفه من أي حيوان من الحيوانات التي يملكها والدها الذي لا يستحي من ذكر حماره أمام الناس، ويفتخر بذكر حصانه والحديث عنه، ولكل منهما مسؤوليته في الحياة، وبعض الحرية في تصرفاته وشؤونه الخاصة. أما عائشة فإنها دولاب بشري تديره يد ذويها، فلا تتحرّك ولا تسكن إلا بإرادتهم ووفقاً لرغباتهم، وكل هذا لا يعنيها، ولم تفكر فيه، بل إنها لا تملك حقّ التفكير فيه، فهي تسير في طريق مرسوم محدود، كما سارت وستسير بنات بجدتها في الماضي والحاضر والمستقبل، لا يعرفن الجديد

ولا القديم، وإنما يعرفن حياة يومية متشابهة لا يختلف فيها يوم عن يوم.

وهكذا تتابعت أيام عائشة في قريتها إلى أن حدث الحادث الجليل الذي خرج بها عن المألوف، وجعل من حياتها صورة تختلف عن صور بنات جنسها. وما الحادث إلا شاب من أبناء القرية عاد من أوروبا التي قضى فيها سنين طوالاً، وحلَّ بين سكان البلدة كالنجم المتألِّق في حلّته الإفرنجية الأنيقة، وشعره المصفّف البرّاق، وحذائه الأسود اللامع. وسمعت به عائشة كما سمعت به بقية الفتيات، وطرق أذنها الكثير مما يتحدّث به من غرائب الأحاديث عن أشياء لم تسمع بها من قبل، ولم يهضمها عقلها الآن، وما برحت هذه الأحاديث حتى أصبحت مبعث العجب بهذا الشاب، والافتخار بحفظ شيء من حديثه العذب، أو التلفُّظ بكلمة من ألفاظه الغريبة، أو رواية حادثة غريبة مما حدَّث به الكبار فنقلوه إلى الصغار، ورواه إلى الرجال فنقلوه إلى النساء. وأُعجبت الفتاة، كما أُعجبت غيرها، بهذا الشاب، أو بهذا الحادث الجديد الذي حلَّ بالقرية، وتحدّثت عنه، وحفظت شيئاً من أحاديثه أسوة بالأخريات، واكتفت بهذا الحديث، فلم تفكِّر في أكثر من

ذلك؛ لأنها لا تملك حقّ التفكير أكثر من ذلك. فحتى خيالها يبدو أنه محجوز عنها لا تستطيع الانطلاق في أجوائه الرحبة الجميلة.

توجّهت عائشة ذات يوم إلى منزل خالتها لأن والدها وذويها أرادوا منها أن تتوجّه إلى ذلك المنزل. فهي مُسَيَّرَة في كل شيء، لا تعرف الاستقلال في قليل أو في كثير من حياتها العامة والخاصة على السواء، وصادف أن قابلت ذلك الشاب في طريق خالٍ، وهو يتأرجح في مشيته، والتقت نظرتها بنظرته، وراقت للشاب، وهي تتمتَّع بشيء غير قليل من الحُسن والجمال، فابتسم لها ولكنها لم تفهم لماذا ابتسم، ولم تدرِ أن هذه الابتسامة موجّهة لها محمل زيادة على معنى الإعجاب بحسنها، معاني أخرى لم تفهم حقائقها إلا بعد أن دفعت الثمن غالياً غلاء فاحشاً. ونظرت هي بدورها إليه، ولكن نظرة بريئة، نظرة كتلك التي تعوَّدت أن ترسلها إلى القمر الساطع في السماء، أو النجم المتألِّق في الأفق. نظرة وكفى، لا تحمل أي معنى، ولا تنطوي على أيّ مقصد. ولكن الشاب لم يكتفِ بهذا الحلّ، ولم يقف عند هذا الحَدّ، بل حاول الاتِّصال بها. وتَمَّ له ذلك بواسطة عجوز استأجرها لهذا الغرض، لم تعوزها

الحيل للاستيلاء على عقل هذه المخلوقة العجماء. وما كاد يتّصل بها حتى فتح لها، بأحاديثه المعسولة، أبواباً كانت موصودة دونها. فحدَّثها عن بنات أوروبا وحرّيّتهن. كما وضَّح لها حقوقها في الحياة، ولم ينسَ ذِكر ما ادّخره لها القانون من الحقوق والمحافظة على رغبتها. ثم عرض عليها أن تفرّ معه لتعيش صحبته في عيش رغد محفوفة بالحرية والحب والسعادة، وأفهمها أن هذه حقوقها الشرعية لا ينازعها فيها منازع... انخدعت عائشة بحديث فتاها، وانقادت لرغباته بثقة عمياء، ففارقت منزل والدها خلسة في ليلة ظلماء، وسافرت مع الشابّ إلى مدينة بعيدة، وسَرَها ـ أول الأمر ـ أن ترى نفسها حرّة تركب القطار، وتعيش في المدن في أحضان شاب أنيق لم تكن تحلم به. ولكن هذا السرور لم يدُم طويلاً لأن الفتى ما إن ستولى على عفافها، وهتكَ سِتر شرفها حتى تركها وفَرَّ قافلاً إلى أوروبا من حيث أتى...

هامت الفتاة على وجهها في هذه المدينة المترامية الأطراف. وكانت ذئاب البشرية لها بالمرصاد تتعقَّب خطاها، فاصطادوها في رمشة عين، ودفعوا بها إلى طريق الغواية، فاحترفتها، وقد وجدت مثيلاتها في بؤرتها يبعن أجسادهن مقابل لقمة من

الخبز. انتقلت عائشة من بلد إلى بلد ومن بؤرة إلى أخرى، واندفعت بحكم المهنة الشائنة إلى تعاطي المُسكرات والمخدرات، وتفوَّقت في هذا الميدان حتى أصبحت قطباً فيه لا يباريها فيه رجل ولا امرأة، وبعث ذلك التفوُّق في نفسها شيئاً من الغرور، فأخذت ترى نفسها أسمى مقاماً من زميلاتها، وتتخيّل نفسها من طينة تخالف طينتهن، ولهذا يجب أن تسمو بأفكارها عنهن، يجب أن تكون لها فكرة أوسع من أفكارهن وأحاديث تختلف عن هذه الأحاديث البسيطة المتكرِّرة. فخرجت بفكرها من ذلك المحيط الضيِّق الذي تعيش فيه إلى محيط أوسع تبحث عن شيء ما، أي شيء كان يميِّزها عن الأخريات، شيء جديد وكفى. وشاء القدر أن تطرق سمعها أحاديث سياسية وأفكار وطنية، وشاعت أحاديث السياسة والوطن في تلك الأيام حتى عمت الأوساط المختلفة ووصلت إلى بيئتها، فرحبت بها واعتنقتها مدفوعة بدافع حبّ السموّ، ورغبة في أن تكون لها أفكار وأحاديث ترتفع عما تفكِّر فيه، وتتحدث به الأخريات. اشتهرت عائشة بأفكارها الوطنية، وسخر منها الناس، فزادها ذلك إصراراً وعناداً وتمسُّكاً بالفكرة، وحاولت مراراً أن تشارك بدريهماتها

القليلة في مساعدة هذه الفكرة التي تعرف عنها أنها ترمي إلى الوطنية والتحرير. والتحرير في فهمها هو خروجها من هذا الماخور العفن إلى عالم رحب تجد فيه لقمة عيشها دون الاضطرار إلى بيع جسدها. والوطنية عندها هي أن يكون لها منزل وبعل محترمان. استولت عليها هذه الأفكار فتمسَّكت بها بشدة كما يتمسّك الغريق بحبل النجاة.

قالت عائشة عن نفسها إنها وطنية، وآمنت بذلك إيماناً راسخاً، واعتقدت اعتقاداً قويّاً أنها لا بد من أن تجني ثمرة ذلك عاجلاً. وشاء ربّك ألا تنتظر طويلاً، فقد انتشلتها هذه العقيدة المقدَّسة من خضم رذائلها، فأقلعت ـ أولاً ـ عن تعاطي المخدِّرات لأن عقلها أوحى لها أن من يتحلّى بهذه الأفكار يجب أن يقلع عن ذلك، ثم أعقبت المخدرات بالانقطاع عن المُسْكرات، ولم تكد تفعل حتى ضجّ منها محيطها الموبوء، وأصبح لا يتحمّلها، ولا يقوى على احتمال نزعتها الجديدة التي تتضارب ومصلحة العمل الذي تصادمت رغباته بإرادتها، فلم يشأ أن يتساهل معها ويخضع لإرادتها، ولم تشأ هي أن تنثني عن فكرتها وتتخلّى عما اعتقدته منقذها الأوحد. وكثر الجدل واشتدَّ الخصام، ولم تنتبه عائشة إلى نفسها إلا وهي

في الشارع تبحث عن عمل حرّ طاهر تتعيش منه، ولم يُخفْها الشارع، فقد أكسبتها التجارب المُرّة خبرة، ولم يطل بها البحث، فتحصَّلت على عمل (خادم) في فندق محترم، ثم وُفِّقت في الاهتداء إلى زوج متواضع صالح، بنى بها دون أن يسألها عن ماضيها، ولم تشأ أن تسأله عن مستقبله، وإنما اكتفت بالعيش البسيط في أحضانه راضية وهي صامتة كالقبر، تدفن في نفسها ذكريات أليمة تبعث في نفسها الرعب، وفي وجهها الخجل، كلما تقهقرت بها الذاكرة إلى الوراء. ولكنه مرهمُ النسيان سريعاً ما فعل مفعوله، فاندمل الجرح، وانمحى الرسم، ولم يبقَ من تلك الإحن والمحن إلا بصيص ضئيل من الذكريات المريرة.

***



العِصامي

لا تنتظر مني ـ أيها القارئ ـ أن أعرض عليك هنا شخصية من الشخصيات البارزة التي ساعدها الحظ، فارتفعت إلى الذرى في ميادين المال والأعمال، وأقول لك ـ أيها القارئ ـ : لا تنتظر مني ذلك لأني أعرف أنك تعوَّدت أن ترى مجتمعك لا يصف بالعصامية إلا هذا الصنف من الرجال، فكل فقير أثرى، وكل وضيع ارتفع (ولو نزلت عليهما الثروة والجاه من السماء دون كَدّ أو جدّ) هما عصاميان عندنا، يستحقّان منا كل التبجيل والاحترام. وانحرفت هذه الكلمة عن مدلولها حتى كادت تختصّ بهذه الطائفة الخاصة من الشخصيات المرتجلة،

مع أن العصامية أعمّ وأشمل، وهي الإرادة الحديدية والعزم القوي والاعتماد على النفس، وعدم الاستسلام للإخفاق، وما يجرّه من يأس، والمثابرة على العمل إلى بلوغ النجاح الذي ينشده، والمثل الأعلى الذي يأمله، مهما كان نوع هذا العمل، ومهما كان كنه هذا النجاح. إن عصاميّنا هذا لم يصل إلى الثروة، ولم يصل إلى الزعامة، وإنما توصّل إلى ما اعتقده مثلاً أعلى، وتوصَّل إلى ما أراده وتمنّاه باذلاً جهوداً جبارة وعزيمة فولاذية لا تقلّان عن عزيمة وجهود أيّ من عظماء العالم. كان صاحبنا ـ واسمه عبد الباقي ـ عاملاً فلاحيّاً بسيطاً، يستأجره أصحاب الحقول والبساتين لخدمة الأشجار، ويكاد لا يعرف البطالة طيلة السنة، وذلك لما عُرف به من النصح في العمل، ولِما منحه الله من قوّة البنية وصحّة الجسم والعقل. التحق عبد الباقي في صباه بمكتب قرآني تعلَّم فيه الكتابة والقراءة، وحفظ أجزاء قليلة من القرآن، ولم يستطع مواصلة التعليم؛ لأن والده انتقل إلى رحمة الله، واضطرته لوازم العيش إلى احتراف العمل في الحقول والمزارع مقابل أجر يومي زهيد. ولكن الرجل خُلق عصاميّاً، له مَثل أعلى في الحياة يريد أن يصل إليه، وله رغبات نفسانية شريفة يودُّ تحقيقها مهما كلَّفه

من الجهد، غير مبالٍ بالعوائق الكثيرة التي تعترض طريقه.
كان لعبد الباقي ـ أو للشيخ عبد الباقي كما يسمّيه مواطنوه ـ فكرة تُخامر ذهنه منذ الصغر: وهي أن يتزعم حركة التربية والتعليم القرآني في بلدته. وشيخ الكُتّاب في بلدته هو كل شيء، يحترمه السكان ويبجّلونه، ويلجَأون إليه لحَلّ مشاكلهم، يعيش في شرف وعزّ، تقف دونهما سلطة القضاء والحكم خاضعة ذليلة...

استولت على أفكاره هذه الرغبة فعمل على تنفيذها، ولم يقف الفقر ولا حاجته إلى العمل حَجَر عثرة في طريقه، فاشترى مصحفاً، واشترى لوحاً خشبيّاً وقلماً ودواة، ثم انكبَّ على حفظ القرآن مع مواصلته العمل، فيعمل شطراً من الليل في إعداد لوحه وكتابته، حتى إذا ما أصبح الصباح حمله معه وانكبَّ على حفظه. وكان يشاهَد وهو مرتقٍ أعلى الأشجار أو عاملاً في الحقول ولوحُه مربوط إلى حزامه يلجأ إليه كلما ألزمه الأمر إلى مراجعته. قضى سنين وهو على هذه الحالة، إلى أن شاع أمره فأعجِب به قوم، وهزئ به آخرون، ولكن الرجل لم يُعنِ له إعجاب المعجبين ولا سخرية الساخرين شيئاً، بل استمرّ قدماً يتابع سبيله، ويواصل العمل بالعمل

والليل بالنهار إلى أن حفظ القرآن حفظاً متقناً، وصلّى به صلاة التراويح، ثم احتلّ حجرة في المسجد، وفتح كُتّاباً قرآنيّاً، وأخذ يُعلم القرآن، يعلِّمه بشدة وقوة محاولاً دائماً ابتكار طرق جديدة لتعليمه، وأخذ يُعلِّم الصبيان في النهار، والكبار في الليل، ولم يعهدوا في قريته تعليم الكبار فضرب لهم مثلاً بنفسه، مثلاً حيّاً ناطقاً، فكثر الإقبال عليه، وتوصَّل إلى أن تزعَّم حركة التعليم في القرية لا ينازعه فيها منازع. ارتاح الشيخ بعض الشيء إلى ذلك، ولكن التقدُّم العلمي جرَّف القرية، فقد نزل بها شبان أتوا يحملون فنّاً جديداً تعلَّموه في جامع الزيتونة بتونس، اسمه النحو، واحتلَّ بعضهم سواري المسجد، وتصدّوا لإلقاء دروس فيه، وتعليم مباديه لمن يرغب في ذلك. تحدَّث الناس بهم، ولهجوا بذكر فنهم الجديد، وقالوا إن الشيخ عبد الباقي لا يحسن النحو... علم الشيخ بذلك وأغاظه أن تُنتزع منه الزعامة العلمية، ينتزعها منه شبان في سنّ الأطفال الذين يتولّى تعليمهم، وصرَّح في مجمع كبير أنه يحسن النحو، وهو يتحدّى خصومه لتدريسه دون الالتجاء إلى كتاب ما، وضرب لهم موعداً لذلك، وبادر بالتحصيل على نسخة منشرح الشيخ خالد على الآجرومية؛ لأن الآجرومية متناً

وشرحاً هي البضاعة الوحيدة لخصومه. وانكبّ على الشيخ خالد يحفظ ما فيه من متن وشرح غير عابئ بفهم عباراته ومعانيه، وحلَّ الموعد، ونزل الشيخ إلى المسجد الذي ضَمَّ جمعاً غفيراً من المعجبين والفضوليين، وألقى الشيخ درسه بصوت جهوري دوَّى له المسجد، فكان يسرد الفقرات من المتن، ثم يتبعها بما يليه من الشرح، كل ذلك دون الالتجاء إلى كتاب، ونجح في الاختبار، واستولى من جديد على زمام الزعامة العلمية، وكان هذا الحادث فاتحاً جديداً له، ففتح له أبواباً كانت موصودة دونه، وعرف أن حفظ القرآن ليس هو كل العلم، بل هناك علوم وفنون أخرى عليه أن يخوض غمارها. ولم ينتظر طويلاً، فبادر ـ لحينه ـ إلى دراسة النحو دراسة متقنة، ثم انكبَّ على الفقه المالكي فحفظ خليلاً، وطالع، مراراً، شُرّاحه وحواشيه، كما درس التجويد والقرآن والفرائض ومعلومات عديدة، واستعان على ذلك بشيخ ضرير لا يدري أهل القرية من أين أتى به، أنزله عنده، وخدمه، وقام بجميع لوازمه. كل ذلك ولم يتخلّ يوماً عن عمله في الكتّاب، أو يختلّ يوماً برنامجه. واتّسعت دائرة عمله؛ حيث لم يكتفِ بتعليم القرآن، بل أخذ يُعلِّم مبادئ شتى العلوم والفنون التي

تعلَّمها، وللرجل قدرة غريبة على هضم ما يتعلّم، وقدرة أغرب على ابتكار طرق جديدة مبسّطة لتعليمه. كان الشيخ عبد الباقي لا يقبل التحدّي ولا يرضخ لهزيمة مهما كانت قوة التحدّي، وعِظَم الهزيمة. وله في ذلك نوادر عديدة، منها أن كبار تلاميذه في مكتبه القرآني يحلو لهم في بعض الأحيان أن يتخلّفوا عن الكُتّاب لقضاء يومهم في لهو ولعب، ولكن الشيخ كان دائماً يحرمهم من متعهم؛ حيث يأتي بهم ولو كانوا في أقصى الحقول والبساتين، وهو يعرفها معرفة جيدة، وقد قضى عزّ شبابه عاملاً فيها. فدبَّروا هذه المرة خطّة مُحكَمة، وهي السفر إلى قرية مجاورة في الحافلة الوحيدة التي تقوم بنقل الركاب صباحاً لتعود في المساء مارّة بتلك القرية التي تبعد عن قريتهم خمسة عشر ميلاً، وبهذا فقط يأمنون تدخُّل الشيخ في إفساد راحتهم المغتصبة.

نَفَّذَ التلاميذ خطّتهم، وحان موعد القراءة، وتبيَّن الشيخ غياب التلاميذ. وبعد البحث والاستقصاء استجلى الخبر، وعرف التفاصيل، وتهامس الحاضرون من التلاميذ باستسلام الشيخ للأمر الواقع، وقالوا إنه لا يجد حلّاً للقضية إلا أن ينتظر الغد لعقابهم، وذهبوا يتخيّلون العقاب، ويبتسمون ابتسامات خبيثة

فَهِمَ الشيخ معناها، ولكن هذا الرجل الذي لا يقبل التحدّي فاجأهم بما لم يتوقّعوه، فقام، لحينه، بتكليف أكبر التلاميذ بمراقبة الكُتّاب، وتوجّه إلى القرية المجاورة ماشياً على قدميه، وعاد بالتلاميذ في حالة يرثى لها من التعب والخذلان. كان الشيخ عبد الباقي يقول إنه الوحيد الذي كسب من التعليم، وفعلاً، فقد تمكّن من شراء بساتين ودار لسكناه، وتزوَّج وأنجب أطفالاً، ولكنه رغم كل ذلك لم ينقطع عن الأعمال اليدوية، فلا زال يباشر خدمة بستانه بيده دون الالتجاء إلى مساعدة أحد، والرجل يتمتَّع بقوة، ويتمتَّع بصحة. وكان ذات يوم يقوم ببناء جدار في بستانه بمساعدة بعض المحظوظين من تلاميذه؛ لأن المحظوظ هو الذي يختاره الشيخ لمساعدته في أعماله. وما كاد يحلّ المساء حتى ارتفع الجدار، وكان الشيخ لا يحسن البناء، ولهذا لم يلبث هذا الجدار أن انهار، لكن الشيخ الجبّار عارضه بصدره العريض وساعديه المفتولين يحاول إمساكه، وأغاظه أن ينهار عمله بين يديه، ولكن قوة البناء تغلَّبت على قوته، وانقضّ الجدار فوقه، فألزمه الفراش أياماً. وكانت آلام الهزيمة في نفسه أقوى من آلامه الجسمانية ورضوضه الجسدية، ولهذا ما كاد يتماثل إلى الشفاء حتى كَلَّف

مساعده بالكتّاب القرآني، وانقطع لتعلُّم البناء حتى حذقه، وأتقن فنونه، وقام بعدّة مقاولات تخصّ بعض البنايات في القرية وخارجها إلى أن قهر البناء، وانتقم من الجدار الذي ألزمه الفراش أياماً، ثم عاد إلى أعماله العلمية وابتسامة النصر تعلو شفتيه.

تخرَّج على يد الشيخ عدد وافر، نجحوا كلّهم في مختلف ميادين الحياة، واستفادوا من عزيمته الحديدية وإرادته الفولاذية أكثر من استفادتهم من معلوماته، وكانوا جميعاً يحبّونه ويحترمونه، ويخضعون له، كما كانوا في عهدة التلمذة والطفولة، فلم يتغيَّر شيخهم في نظرهم، ولم يتغيَّروا هم كذلك في نظره رغم المناصب المختلفة التي أحرزوها. كان الشيخ عبد الباقي يتمتَّع بنفسية عالية جدّاً، اشتُهِر بها، وتحدّث بها العام والخاص، فهو لا يحطّ همّته لأحد، ولا يلتجئ إلى كائن من كان في قضاء حاجة أو طلب شيء مهما كانت حاجته شديدة إلى ذلك، فكل شيء لا يستطيع التوصُّل إليه بنفسه، وكل قضية تستدعي الوساطة (ولو وساطة أقرب الناس إليه) يلغيها، ويحكم بعدم لزومها ويعدّها من الكماليات التي لا

لزوم لها، ويحذفها من برنامج حياته مهما كانت ضرورية، وحاجته إليها ماسة، وعاش بذلك عزيزاً مُكَرَّماً شامخاً بأنفه إلى السماء، ولا أدري بماذا كان يفكِّر حينما أدركه الموت، وكيف قابل تحدّي عزرائيل. ولكن الذين شاهدوه في لحظاته الأخيرة، قالوا إنه قَبِلَ التحدّي بابتسامة تدلّ على الرضا والاطمئنان، ولسان حاله يقول: الآن أخضع وأنحني باحترام؛ فقد لاقيت حقّاً من يقهرني.

***



العمُّ «نتيش»

عرفت العم «نتيش» وكنت حينذاك أتمتَّع بريعان الشباب. احتلّ مكاني بين زمرة من شباب القرية؛ حيث كنا نقضي أيام عطلتنا المدرسية في اللهو واللعب والعبث البريء، وكان العم الذي لا يتخلَّف عن مجالسنا قد تخطّى عتبة الشباب بأعوام، وأخذ ينحدر مع السنين في منعرجات عقده الخامس، ولكنه كان فتيَّ التفكير كثير المرح، لا يعبأ بمسؤوليات الحياة وتكاليفها الثقيلة، يقضي يومه ولا يفكِّر في غده، رغم أنه كان متزوِّجاً وله أطفال يطلبون منه التفكير في حاضرهم وفي مستقبلهم.

كان رجلاً بدويّاً، نشأ في البادية، وتربّى فيها، يكره المدن،

ويمقت تكاليفها المعقَّدة، بل يكره كل شيء مُعَقَّد في الحياة، يهوى العيش البسيط، ويقنع منه بأتفه الزاد، يميل إلى المرح واللهو، ويتبرَّم من الجدّ والعمل، فقد كان كسولاً موهوباً، يعيش في أكناف عَمّه الذي استوطن الحاضرة منذ عهد طويل، وكوَّن ثروة متوسِّطة من عقار ومزارع، حاول عبثاً استغلال مزارعه وسير أعماله، مقابل ما يقوم به من تكاليف عيشه وعيش عائلته، فكان يعيش معه في مشاكل ومعارك لا تعرف الانتهاء، فبقدر ما كان عمّه ذا حزم وعزم ونشاط يستوجبها ثراؤه وأعمال مزارعه، كان نتيش كسولاً بَرِماً بكل عمل جدّي مثمر. يحلو له أن يقضي يومه في المقهى في لعب الورق و«الدومنة» في جوّ من المرح والمزاح. كان نتيش يحتلّ مكانته الفتية رغم تقدُّم سنه، وكنا نحبّه ونستأنس به للطفه وظرفه. «نتيش» كان وكنا نشجِّعه على التمرُّد على عمِّه، ونحثّه على عدم القيام بأي عمل يكلِّفه به، وكم كان يسرّه ذلك منا، ولهذا كان يلجأ إلينا كلّما كلِّفه عمّه بإنجاز عمل، وسريعاً ما نجد له حلّاً لمشكله (حلّاً يرضيه طبعاً)، ونجد له عذراً يتقدَّم به إلى عمِّه، وينتهي كل شيء في رمشة عين، وننتقل فوراً إلى المزاح واللعب، ويروح يقصّ علينا

مغامراته الكثيرة مع عمّه، يقصّها علينا بأسلوبه الساذج ولهجته البدوية، فكنا نضحك لها، ونطرب، ونشجِّعه على الاستمرار في مناوءة عمه والتمرُّد على أوامره.

إنه الشباب سامحه الله وغفر ذنبه... وذات صباح، بينما كنَّا جالسين في مقهانا المعتاد نتجاذب أطراف الأحاديث والنكات، إذ قدم علينا العم نتيش بقامته فارعة الطول وهيكله النحيل المُجَرَّد من اللحم، وما كاد يأخذ مجلسه بيننا حتى ابتدرناه بالسؤال عن مشاكله ومغامراته مع عمِّه، وابتسم «نتيش»: ابتسامة عريضة وقال: «الدعوة مطيّنة يالولاد..». وألححنا عليه في محادثتنا عن هذه المسألة «المطيّنة» فقال بهدوء وبساطة: زارني البارحة جماعة نصف الليل! وجماعة نصف الليل في لغة العمّ هم اللصوص، قال: كنت البارحة وحدي في المنزل، حيث قضت زوجتي والأطفال ليلتهم عند عمي، كنت مستلقياً في فراشي أتصيَّد الكرى، إذ لاحظت في غسق الليل لصَّيْنِ يتجوّلان في غرفتي باحثَيْن عمّا غلا ثمنه، وخَفّ وزنه. ولكن، مع الأسف ماذا يملك نتيش سوى قدر من الطين وقصعة من خشب، والمؤونة تأتينا يوماً بعد يوم من دار عمي موزونة بميزان الذهب، لا تزيد درهماً واحداً

عن حاجتنا. وكنت أنظر إليهما ـ وضوء المنور ساطع على وجهيهما ـ فقد كانا مطمئنين يظنان المنزل خالياً، ولكن علامات الحسرة كانت بادية عليهما بوضوح، وأغاظني أن يعودا من حيث أتيا بخُفّي حنين، فنبَّهتهما إلى ملحفة جديدة من الصوف كانت في ركن خفي من أركان الغرفة لم ينتبها إليها، وطلبتُ منهما ألا يعودا إلى أمثال هذه المنازل الفقيرة الخالية، ومنزل عمي، على مقربة من هنا، زاخر بمختلف الأرزاق والخيرات... قلنا له: كيف تفعل ذلك وتُناول لصّيْن غطاءك وغطاء أهلك؟ فضحك وقال: إنه ملك عمّي استعرته منه، وما يضيره أن يصير في يد غيره، ولأي شيء تنفع أمواله! قالها بكل بساطة، وابتسامة الانتصار على عمّه تعلو شفتيه.
كان لنتيش غريم اسمه زيان، يكرهه كل الكره، لا لسبب أو داع، وإنما كان يكرهه لوجه الله، كما يقول حينما نسأله عن الأسباب والدواعي. كانت إحدى ساقَيْ زيان مستعارة من خشب؛ إذ فقد ساقه الأصلية في حادث اعتداء لصوص على مزرعة لعم نتيش كان يقوم بحراستها، وكان السبب الحقيقي لكره نتيش له، أنه أضاع ساقه من أجل أموال عمه، ولهذا ينتقده، ويصفه بالبَلَه، ويقول: إني ـ والله ـ لا أسمح بضياع

شعرة من رأسي من أجل أموال الدنيا كلها. ويستمرّ في انتقاد زيان فيقول: أتظنوني مثل ذلك الأبله الذي فقد ساقه من أجل كيس من الشعير ينتفع به غيره؟ فماذا كانت فائدته، سوى ساق من الخشب، يكسر بها بلاط المساجد، ويزعج بها عباد الله الآمنين؟! قلنا: لو كنت مكانه، ألا تفعل مثله؟ قال: هيهات! ولا أذهب بكم بعيداً، فقد أرغمني عمّي- في السنة الماضية- على مشاركة عمّاله في حراسة الحبوب في البيدر، وكان بعضها صافياً نقيّاً، ينتظر نقله إلى المخازن، والبعض مختلطاً بِتِبْنِه ينتظر هبوب الرياح المواتية لتصفيته. وكنا نتناوب الحراسة. وجاء دوري، وكأن اللص لم يكن ينتظر إلا ذلك. قلنا مقاطعين: إن اللصوص يعرفون- من دون شك- تقديرك لهم وعطفك عليهم؟ ابتسم واسترسل يقول: وما كاد يستغرق الآخرون في النوم حتى شاهدت - على ضوء النجوم - لصّاً يتقدّم بخطوات بطيئة نحو البيدر، ولبلاهته ترك القمح النقي المصفّى، وقصد كوماً من الشعير المختلط بالتبن، فقلت له: لا تنزعج! دونك القمح النقي، املأ منه كيسك واذهب بسلام. ولا أدري كيف انتبه أحد النائمين إلى ذلك، فأيقظ الآخرين واضطرّ المسكين إلى الفرار خالي الوفاض. قلنا: وكيف كان

موقف عمّك من عملك هذا؟ قال: سخط عليّ، ولكني أجبته إني لا أريد أن أشارك زيان الأبله في إزعاج خلق الله بساق من الخشب، أجني لعنات الناس من أجل كيس من القمح ينفع هذا المسكين، ولا يؤثِّر على ثروته شيئاً. قلنا له: إنك تعطف على اللصوص، وتشجِّعهم على أعمالهم الشائنة، وهذا لا يليق بك. وكان جوابه: إن اللصوص مخلوقات مثلنا، لهم الحقّ في الحياة والعيش، جعل الله رزقهم من أموال الذين لا يدفعون حقّ الله من الزكاة. وكان نتيش يعتقد اعتقاداً جازماً أنه لا يُسرَق إلا الذي لا يدفع حقّ لله من ماله. قلنا له: لكنها مهنة غيرشريفة وغير مشروعة. قال: وما ذنبهم؟ إن الله خلقهم وخلقها وجمع بينهم. قلنا: ستستمرّ ـ إذاً ـ في الدفاع عنهم والعطف عليهم وتشجيعهم؟ قال ضاحكاً: سأشجِّعهم على نهب أموال عمّي كلها، ما دام لا يحسن الانتفاع بها.

وساءت الأحوال بينه وبين عمّه، فلم يعد عمّه قادراً على احتماله، ففارقه، وعاد نتيش إلى باديته يعيش بين عشيرته كما يحلو له أن يعيش تاركاً لنا فراغاً عظيماً، وذكريات عذبة.

* * *



السِّكِّير

إنه لَسِكّير عجيب، لا يشبه غيره من مدمني الخمور؛ لأن الخمر لا تبعث في نفسه الغبطة والسرور، كما تفعله عادة في نفوس غيره من السكّيرين، بل تثير في نفسه الحسرة والندم، فيغدو يتوجّع وينتحب، ودمعه منهمر على خديه كالطفل المذنب. تعرّفت إلى هذا الرجل بعد هذه الحرب الأخيرة، وقد كنت مديراً لمدرسة أهليّة، وكانت صلة الوصل، بيني وبينه، ابنته التي كانت تتعلَّم في مدرستي. كان الرجل والداً، والداً رحيماً، إذ كانت له طفلة جميلة في الثامن من عمرها، كأنها ملاك، يفيض وجهها الصبوح بأنوار الطهر والبراءة، يحبّها

والدها حبّاً عنيفاً طاغياً، يحبّها حَدّ العبادة، ولهذا كانت سبب سعادته وسبب شقائه في الوقت نفسه. كانت تلك الطفلة ـ واسمها حورية ـ سبب سعادة لوالدها؛ لأنه كان يعيش لها وحدها، يعيش من أجلها، يحيا لها وبها، لا يشاركها في قلبه وعواطفه شريك لا بعيد ولا قريب، فهي كل آماله وأمانيه في الحياة. فقدت حورية والدتها وهي صبية في المهد، فقام والدها مقام الأم والأب، فأحاطها بحبّه وعطفه وحنوِّه، واحتلَّت البنيّة كل جزء من قلبه وروحه، فأصبحت تشغل كل حياته، يُسَرّ لابتسامتها، ويتعذَّب لأقل ألم يصيبها، كانت تملأ دنياه بالسعادة والسرور. يقودها كل يوم بنفسه إلى المدرسة، ويعود بها عقب الدرس صباحاً ومساء في مواعيد محدودة دقيقة لا يتخلَّف عنها أبداً، ولا يعوقه عائق ـ مهما كان جسيماً ـ عن مرافقتها في غدوّها وفي رواحها. كان هذا الوالد الرحيم المدلّه بحبّ ابنته سكّيراً مدمناً على شرب الخمور، لا يكاد يفارق عمله مساء كل يوم حتى تقوده رجلاه إلى أقرب خمارة، فيعبُّ من الخمر إلى أن تمتلئ بطنه، ويغيب عقله، ويفتكر حينئذ بنته وهي في مدرستها تنتظر قدومه ليعود بها إلى المنزل، فيثور ضميره مؤنّباً، ويستعظم جرمه، ويصير ـ وهو

تحت تأثير الخمر- ينتحب كالطفل الصغير... كيف يقابل ابنته المحبوبة وملاكه الطاهر وهو على ما هو عليه من الخزي والعار؟

شاهدته لأول مرة وقد كان جالساً على مقربة من مديري إدارة المدرسة، جالساً في هدوء وسكون، وعيناه تذرفان الدموع، فأدهشني أمره، وكأنه انتبه لما أنا فيه من الدهشة والحيرة، فابتدرني قائلاً: أنا والد حورية. قلت: نعم، مرحباً بك. قال، وهو مسترسل في البكاء: هل يجوز لمن كانت له ابنة مثل حورية تدرس العلم الشريف، أن يشرب الخمر؟ حرتُ في الجواب، وعلمت أني أمام رجل مخمور. ولم ينتظر جوابي، بل استرسل يتكلَّم بصوت متقطّع يشوبه البكاء والنحيب: كيف أقابلها؟ هل أجرؤ على رؤيتها ومقابلتها وأنا على هذه الحالة اللعينة؟ لا... لا أستطيع أن ألمس يدها الطاهرة بيدي النجسة. ما أشقاني، وما أتعسني! إني لا أقوى على تحمُّل نظرتها الطاهرة المقدَّسة، وأنا كالخنزير تفوح رائحة الخمور من فمي. أخذت أخفِّف عنه آلامه، وأهوِّن عليه خطبه، ودعوته للانصراف إلى منزله ما دام لا يرغب في رؤية ابنته وهو على هذه الحالة، ووعدته بتكليف أحد التلاميذ الكبار

بمرافقتها، فما عليه إلا أن يكلّف من يستقبلها من جيرته وذويه، وصاح الرجل قائلاً: لا... لا... إني لا أطمئنّ عليها وهي برفقة تلميذ، إني أخشى عليها من السيارات. وما كان مني إلا أن طمأنته، ووعدته بمرافقتها بنفسي إلى المنزل. فرح الرجل، وأخذ يهذي بخليط من كلمات الشكر والحمد، وانصرف يتأرجح في مشيته.

استمرّ الرجل على هذه الحالة جاعلاً من نفسه ميداناً لمعركة عنيفة بين عوامل الخير والشر، فتشنّ، تارة، جيوش الخير غارتها يقودها حبّ هذه البنيّة، فتنتصر ويكفّ الرجل عن تناول الخمر أياماً يقضيها سعيداً بابنته راضياً عن نفسه، ثم تعيد جيوش الشر غارتها، يناصرها جرثوم الخمر المتمكِّن من نفسه، ويشجّعها رفقة السوء من روّاد الحانات وعشّاق الرحيق، فيعود إلى السُّكْر، ويعود إلى البكاء والنحيب، ويعود ضميره إلى التأنيب، وكل ذلك من أجل ابنته التي يحبّها إلى حَدّ العبادة، ويسوءه أن تنتسب إلى والد سكّير قذر، إنه يريد أن يقلع عن رذيلة السُّكْر، لا خوفاً من الله، ولا حياء من المجتمع، ولكن من أجل هذه البنيّة؛ لأن ذلك يحطّ من كرامتها، ويُنقص من قيمتها. وهو يريدها كاملة لا تشوبها

شائبة نقص.

تركتُ المدرسة في نهاية السنة الدراسية وتركتُ السكّير في صراعه العنيف مع نفسه، وإني لا أدري إذا ما تغلَّب جانب الفضيلة الذي تحميه ابنته حورية بما تشعّه من أنوارها في دنياه المظلمة، أو تغلّب جانب الرذيلة الذي تناصره شهوة النفس وإغراء رفقة السوء.

***



رجل من الناس

«زمرة الأصدقاء» كما يسمّون أنفسهم ـ هم عبارة عن نفر من الشبان من أوساط الشعب، وحَّدت بينهم فضائلهم، لأن الفضائل ـ وحدها ـ هي التي تستطيع أن توحِّد بين القلوب توحيداً متيناً لا يقوى الانفصام على زعزعة أركانه، وجمعهم اتّحاد مشاربهم ونبل مقاصدهم، وآخى بينهم صفاء قلوبهم ورقّة عواطفهم، فأصبحوا مثلاً للأخوّة الصادقة، والصداقة الخالصة، ورمزاً عظيماً للمحبة والوفاء، تجمعهم كل يوم بعد انتهاء أعمالهم، مجالس الأنس والسرور، لا يكاد يغيب واحد منهم إلا افتقدوه وتفقّدوه. كان خالد ـ الذي لا يفارقهم

أبداً، ولا يتخلف عن مجلسهم ـ رجلاً غريب الديار يعرفون أنه نزح إلى هذه البلاد منذ سنين بمفرده، وكل ما يعرفون عنه أنه أعزب، وجاء من بلاد نائية لم يشأ أن يحدِّثهم عنها طيلة اتِّصاله بهم، وأنه «رجل من الناس» لا أكثر ولا أقل، كما يقول عن نفسه، كلما سأله أحد عن أصله وموطنه. ولم يخطر يوماً على بال أحدهم أن يلحّ عليه في الكشف عن ماضيه، مكتفياً بحاضره، وقد ملك الرجل عليهم مشاعرهم بلطفه وأدبه وعطفه وكرمه، وأنه «رجل من الناس»، وحسبُهم ذلك، ويعلمون ـ فوق ذلك ـ أنه عامل مثلهم، يشتغل بالكتابة عند تاجر جشع بمرتَّب زهيد، رغم سعة معلوماته وكرم أخلاقه وإخلاصه في عمله الكثير، ويحسّ الجميع بتألّمه من حقارة مركزه وضآلة مرتبه الذي يوزِّع جلّه على الفقراء والمساكين، ولم يعرفوه يوماً رَدَّ سائلاً، أو اشتكى لهم الفاقة والاحتياج، فالابتسامة لا تكاد تفارق شفتيه، فهو دائماً في مرح وسرور، يمازح هذا، ويحادث هذا، يسأل ذا، ويجيب الآخر. وهكذا كان نزهة مجلسهم وأنس حياتهم، يلتفّون حوله كل مساء فيتصدَّر جمعهم، ويظلّ يحادثهم ويباسطهم، والجميع سابحون في جوّ مرح، كله غبطة وسرور.

كان الناس ينظرون إلى هذا النفر من الأصدقاء نظرات مختلفة؛ فمنهم المعجب بهذه الصداقة وهذا الائتلاف، ومنهم الحاسد على هذا الصفا وهذه المودّة، وكم حاولت جيوش الحسد- بغارتها الشعواء- أن تفكِّك عرى صداقتهم! وكم حاولت ألسنة السوء أن تشتِّت جمعهم دون جدوى! ولم يزدهم كلام الناس إلا ابتعاداً عن الناس وصحبةً وارتباطاً، ولم تزدهم محاولات الحساد إلا توطيداً لدعائم الصداقة والمودّة.

«خالد» شابّ في العقد الثالث من عمره، يتمتَّع بثقافة متوسّطة جامعة، أخذ من كل فن حظّاً وافراً، سليم الطبع، حلو الفكاهة، كريم النفس، ذو همّة عالية وأخلاق فاضلة، تعلو شفتيه ابتسامة عذبة لا تكاد تفارقه إلا إذا خلا إلى نفسه، وتعمَّق في بحور أفكاره، فتغمره سحابة من الكآبة والحزن لا يعرف أحد مصدرها. وكثيراً ما تجده في أشدّ حالات السرور، إذا به ينتقل فجأة إلى حالة حزن وكآبة، ويغيب بفكره عن جماعته، فينتبهون لذلك، ويصيح الجميع مازحين: كم عدد البواخر التي غرقت لك في البحار يا خالد؟ عَلّها كانت تحمل بضاعة كثيرة؟ وينتبه خالد من غفوته، ويعود إلى نفسه ومجلسه، فيردّ على النكتة بأحسن منها، ثم تسمع

سعلته الخفيفة المعتادة، التي يسميها جماعته «صفّارة الإنذار» يرسلها كلما أراد الخوض في أمر معهم، فينقلب المجلس بغتة من المزاح إلى الجدّ، ويفتح الجميع قلوبهم وآذانهم كأنهم تلاميذ سُذّج، ويبتدرهم خالد بقوله: إني لا أكاد أفكّر في نفسي- يا إخواني- وأهتمّ بأموري الخاصة بقدر ما أفكر في مصائب الغير وأحوالهم التعيسة، فكل شيء في هذه الدنيا ينسيني أحزاني وآلامي، تحزنني هذه الفضيلة التي أصبحت قشوراً دون لبّ، مظهراً دون مخبر، أصبحت زيّاً يتزيّن به الإنسان أمام الناس، ويخلعه إذا ما خلا إلى نفسه، وبذلك أضاف الإنسان رذيلة النفاق إلى رذائله العديدة؛ أصبحت الفضيلة أثاثاً ماديّاً يرثه الابن عن أبيه، ويشتريه ذو المال بثمن زهيد، فلم تعد الفضيلة شعاراً سامياً يردِّده كل من عصمه الله من الرذائل، فمسخت الفضيلة غير الفضيلة وانتزعت روحها، فلم يبقَ سوى جثمانها جثة هامدة لا روح لها ولا إحساس... وهكذا يسترسل خالد في تحليل مساوئ المجتمع ونقده، وإبداء نظرته إلى الحياة، وجماعته يؤمنون بقوله، وبدا، بذلك، شاذّاً عن هذه البيئة التي قُدِّر له أن يعيش فيها، وزد على ذلك صراحته التي عُرف بها، والتي كثيراً ما

تحرج قلوب بعض الناس الذين تجمعه الظروف بهم، رغم محاولاته ـ دائماً ـ الابتعاد عن هذه الطائفة من العباد الذين لا تحلو لهم الحياة إلا في جَوّ من النفاق والكذب، وربما خرجت به هذه الصراحة إلى حَدّ أنها سببت له متاعب مادية وأدبية لا يُحتَفل بها ولا يُلتَفَت إليها. هكذا عاش هذا «الرجل من الناس» مع الناس وشاع خبره بينهم، فرغب البعض في التعرف إليه والاتصال به، بينما زهد آخرون في الاجتماع به مكتفين بما يشاع عنه من خير وشر، أما هو فقد اكتفى بجماعته البسيطة لا يريد عنهم بديلاً، ولكن كل ذلك لم يمنع الناس من التساؤل عن أصل هذا الرجل العجيب، مدفوعين بدافع الفضول، فمن أين أتى؟ وإلى أيّ عائلة ينتمي؟ وفي أيّ بلد نشأ؟ ولم يجرؤ أحد منهم على سؤاله، فإن حدّة لسانه وحدّة أعصابه أخرستا ألسنة الفضوليين. وعاش خالد في أكناف هذا الغموض كما أراد واشتهى، واستمرت حياته متتالية متشابهة لا يكاد يختلف يومه عن غده، راضياً بمصيره لا يتبرَّم ولا يشتكي، قانعاً بمدخوله الزهيد وحجرته المتواضعة ومجتمعه البسيط. وذات يوم زار زائر أجنبي خالداً، علم به كل من في البلدة، رغم أن زيارة الرجل القريب كانت حقيقة

مقتضبة وفي ليلة حالكة الظلام، أشاع خبرها جار لخالد، لم يتعوّد منه استقبال زوار في حجرته لا ليلاً ولا نهاراً، وذهب الناس يتساءلون عن هذا الزائر وعن أسباب زيارته، ولزم خالد الصمت فلم يذكر شيئاً قليلاً أو كثيراً عن هذه الزيارة، ولم يشأ الخاصة من أصدقائه أن يستوضحوه أمره ما دام رغب هو في الكتمان، ثم إنهم لم يتعوَّدوا منه أن يدخلهم في شؤونه الخاصة. رغم أنهم لاحظوا عليه تبديلاً واضحاً، حيث أصبح الرجل في وجوم متواصل، يتكلَّف الابتسام والدعابة. وبدأ الشحوب على قسمات وجهه جليّاً، مما يدل على أنه يقاسي أزمة شديدة يخفي أمرها على الجميع، ولكن، راعهم منه أنه لم يغيِّر من عاداته ومجالسه وأحاديثه شيئاً، واستمرّ على هذه الحالة أياماً عديدة كانت بالنسبة له قروناً طويلة لا نهاية لها، يعدّ دقائقها وثوانيها. وذات صباح علمت البلدة كلها بخبر الشرطي السرّي الذي ألقى القبض على خالد، ونقله معه في سيارته إلى حيث لا يدرون. وغدا الناس أياماً، وهم يتكهَّنون محاولين كشف السر ومعرفة جرمه: فمن قائل إنه جاسوس يعمل لحساب دولة أجنبية، وأجاب آخرون: إن الجاسوس لا يلزم بلدة صغيرة سنوات عديدة، لم يُعرف عنه أنه فارقها

منذ استوطنها. وقال آخرون إنه مجرم أثيم، يتستَّر تحت رداء الفضيلة وحمايتها. غير أن الذين عرفوه واتَّصلوا به عن كثب ردوا عنه هذه التهمة، واستبعدوا منه صدور الجريمة، وذلك لما يعرفون فيه من الأخلاق الفاضلة والعواطف السامية.

وهكذا كثرت التكهُّنات والتخيُّلات، ولكن أحداً لم يستطع أن يجزم أنه أصاب كبد الحقيقة، وتوصَّل إلى معرفة السرّ الخفي. ومرت الأيام، وأَسدَل النسيان ستائره على حادث خالد، فنسيه الناس، حتى الخاصة من أصدقائه وجلسائه، وانتقل الجميع من الحديث عنه إلى أحاديث أخرى أكثر جدّة وطرافة. وهكذا عاش «رجل من الناس» بينهم لغزاً غامضاً دون أن يترك لهم مفتاحاً لحَلّ طلسمه الغامض الخفي.

***



فقاقيع الأدب

من نكد العربية والأدب العربي في هذه البلاد أن نَكَبَهما الزمان ببعض المتطفِّلين المغرورين، وجدوا الميدان خالياً لا حسيب ولا رقيب، واتَّسعت لهم أعمدة الصحف تشجيعاً لهم، فغرَّهم هذا التشجيع وظنّوها عروش الأدب وقد اعتلوها، فتنكّبوا عن جادة الأدب الصحيح، وانحرفوا عن صراطه المبين، وعكّروا منهله الصافي. حيث ذهبوا يفلّون قمامات الصحف والمجلات، يلتقطون منها بعض التعاريف الشاذة، والرطانات النابية، يتشدقون بها في مجالسهم ثم يقحمونها في مقالات يشوِّهون بها صحائف الأدب الناصعة، وينكبون

بها القراء، ويأخذ القارئ البسيط يقرأ ويعيد، وهو لا يفهم شيئاً، فيتّهم فهمه، ويتّهم ذوقه وهو لا يدري أن هؤلاء الكتَّاب أنفسهم لا يفهمون مما يكتبون شيئاً، ولا يوجد في طيّاتها ما يتطلَّب الفهم.

الأدب العربي أدب الأسلوب السلس والمعنى المتين، أدب البيان والتبيين، لا يمتّ بِصِلة إلى هذه الشقشقة الغامضة المخنَّثة التي أُغرم بها هؤلاء الفقاقيع أيّما غرام. وأقدِّم إلى القارئ أنموذجاً من هذا اللون من الأدب الملتوي. ولا تحاول أيها القارئ أن تفهم منه شيئاً، فهو فارغ لا يحتوي على مادة تُهضَم أو معنى يُفهَم.

قال أحد فقاقيع الأدب لزميله، وقد جمعتهما ندوة ندية، وكان كل منهما يلوك لِبانة أميركية يتشدّق بمضغها كتشدُّقه بمضغ كلماته: ما قولك في السموّ الفني يا عزيزي؟ فأجابه عزيزه قائلاً: لا يستقيم السموّ الفني في خمائله الفينانة إلا إذا كان نتيجة إيجابية مشرقة الجانب التصويري، تمتاز بروح التعمُّق، بعيدة عن طابع السطحية، لا سيما إذا كان الصدق العاطفي أبرز معانيه، والطابع النفسي هو مقياس الجمال في فلسفته الماورائية. أما التجلّي اللامع الذي تبدو طقوسه

البرّاقة جليّة في معبد الجمال فلا تستقيم قدسيته إلا إذا اتّصل طرفه بالذوق الذاتي، وإن كان هذا الأخير إكلاسيكية حديثة من أبرز معاني «الرصيد الفني» الذي يُعَدّ اليوم من أخصب عناصر الأدب الحديث وخصائصه الأصلية. ورفع الثاني طرف جبّته، واستوى في مقعده وقال: هذا حقّ يا عزيزي، ولكن الرومنتيكية التي تتجلّى بوضوح في نفثات بعض كتّابنا، يبدو لي أن الجانب الرمزي فيها ينقصه محراب الفن ليتبرَّز في إطار روحي، أبدعته ريشة الفنان المطبوع، هذا وحده هو جانب التعمُّق في البحث إذا ما أردنا أن تستقيم لنا ذاتية الهيكل، وتنسجم لنا ألوان الرسم، ويخضع لنا التعمُّق الفكري في معانيه البارزة حيث تشعّ أحلامه الذهبية في منعرجات أنغامه الموسيقية فيبدو في إشراقة الفجر، وقد تخلَّص من الجفاف الفكري، وتحلّى بطابع السمو والمعنى النديّ في أعماق التجربة الشعورية.

أنا أوافقك إلى حَدّ يا أستاذ، ولكن لا تنسَ أن الأصالة في الإشعاع الذوقي فرع من اللاشعورية القارّة، وذاتية الأدب لا تقوم جوانبها إلا إذا اعتمدت على تركيز النقد، وتحكَّكت بموضوعية العلم، ولو من بعيد، دون أن تخلو من أشعة الأداء النفسي.

ـ حقّاً، تلك هي أسس التعمُّق في البحث الحديث يجب على الكُتّاب ألا يهملوها إذا ما أرادوا التحليق في أجواء الإبداع الفني، وأرادوا أن يستقيم لهم التجاوب الفعال ذو الأصداء الحالمة في صفته الانطوائية الصاخبة بالحيوية العارمة المنسابة من ينابيع العبقرية الجامحة، التي لا تخضع إلا للأسلوب الحديث المتمرِّد عن الأوضاع البيئية، المتعلِّقة، دوماً، بالمهيّة الكلّيّة.

ـ فإن كتابنا يا أستاذي، سطحيّون، ابتعدوا كل البعد عن الأدب الوجداني الملتزم الذي تبدِّد أنواره اللاهوتية تلك الظلمة الكثيفة التي تكشف الروحانية الحسِّية، فتفقدها الحرارة الأثيرية المستمَدّة من قبس الإبداع الفني الرائع.

ـ نعم، نعم... أنا لا أشك في أن هذاـ وحدهـ هو الطرف الإيجابي في السموّ الفني، وما عداه فكلّه سطحيّ لا يستند إلى التعمُّق المرتكز، ولا يرتكز على السموّ العميق. ا.هـ.

وبعد، فهذا أنموذج من أدب «السونيق» الحديث وقد راجت سوقه بين أدباء المظهر في الشرق قبل سنوات، ولكن الشرق تخلَّص منه بعض الشيء، بعد الضربات القاسية التي وجَّهها له الزيات وحسين شفيق المصري وغيرهما، وكنا نظن أن

العربية تخلَّصت منه إلى الأبد، وإذا بنا نرى بوادره في أدبنا وقد بدت في صور أكثر انحلالاً وأشدّ غموضاً، ولكننا له بالمرصاد، وسنقضي على بذوره قبل استفحالها، ولا نقبل في شمالنا الإفريقي إلا أدباً عربيّاً مبيناً، أخذ من الماضي متانته، ومن الحاضر سلاسته، أدباً شعبيّاً مفيداً. وليذهب الرصيد الفني والشعورية القارّة وفقاقيع الأدب إلى الجحيم.

***



الشخصيات المرتجَلة

جاء في معجم اللغة: ارتجل الطعام أي: طبخه في المرجل، وارتجل الكلام أي: ألقاه دون رويّة أو تحضير. أما الشخصية المرتجلة في معجم الحقيقة المرة، فقد جمعت بين المعنيين لهذه الكلمة: الطبخ، وعدم الإعداد والتحضير. وإذا أمعنت النظر، ودقَّقت الفهم في الطبخ والارتجال، يتّضح لك، بجلاء، أنهما متقاربان في المعنى، حتى أننا نجد كثيراً من الكتَّاب يطلقون كلمة (الطبخ) على معنى الارتجال، فيقولون: طبخ فلان كتابه، أي ألّفه بسرعة دون عناء في التدقيق أو مشقّة في البحث، وذلك هو الارتجال بأتمّ معناه. أما الشخصية المرتجلة، فهي تلك الشخصية التي تُطبَخ على عجل في

مرجل الأنانية وحبّ الذات، فلم ينضج منها إلا ظاهرها، ثم تغمس في سائل كيمياوي عجيب رُكِّب من الدجل والغرور والشهوات الجائعة، فهو يشبه العسل في مظهره، ولكنه يخالفه في مخبره. وبعد هذا الطبخ السريع، والطلاء الزائف تنزل هذه الشخصيات المرتجَلة، على المجتمع كجنود المظلات دون سابق إنذار، لتفرض نفسهاضريبة ثقيلة على الأمة، تحبّ الرئاسة وتريد القيادة، وتهيم بالزعامة، ولكن، ليس لديها من المؤهّلات سوى ذلك الطلاء الزائف الذي لا يوجد تحته سوى مطامع دنيئة ودعوى خاوية.

وتغدو هذه الشخصيات المرتجَلة تتبختر في مظاهرها الزاهية ومخابرها القاتمة، وهي تصرخ بوقاحة في وجه الأمة: سلِّميني زمام القيادة! رقّيني إلى منبر الزعامة! أجلسيني على عرش العظمة!

والأمم- وإن اختلفت في درجات الثقافة والجهل، وتفاوتت في مقدار الرقي والانحطاط- لم تختلف أبداً في فهم الزعيم الحق، ولم تخطئ أبداً في اختيار القائد الصالح. فهي كلها تحسن اختيار القائد، وتصيب في تزعيم الزعيم، وتدرك إلى من تنقاد وتطيع، وذلك عائد إلى حواس فطرية

وإدراك طبيعي، وهو عنصر المناعة ضدّ الانحلال والانحدار، خلقه الله في جسم الأمة، لا دخل للعلم والاكتساب فيه. ولم نجد أمة انخدعت في اختيار زعيم، ولم نجدها كذلك خذلت شخصاً لا يستحقّ الخذلان، ولهذا كان حكمها دائماً هو أصدق الأحكام. وبينما نجد الأمة تتسلُّق درجات التقدُّم بصعوبة وعناء، إذا بهذه الشخصيات المرتجَلة تطنّ في سمائها كالذباب، فلا تلتفت إليها حتى إذا ما أزعجتها وأقلقتها، أعارتها التفاتة بسيطة، لا لتسمع إلى دعوتها، أو تنخدع إلى حيلها، وإنما لتلقي بها في مهاوي الحضيض، لتتخلَّص من وقاحتها وعرقلتها، ثم تمضي قُدُماً في طريقها، لا تلوي على شيء. يظلم بعض الناس هذه الشخصيات، فيقولون عنها: «إنها مصابة بداء العظمة». وكما أنني ذكرت هنا ما على هذه الشخصيات، يجمل بي أن أذكر ما لها، فأعترف أنها مظلومة في هذه الوصمة كل الظلم. فإن داء العظمة، هو ذلك الداء الخطير الذي أصيب به المتنبي شاعر العربية وفيلسوفها، وأصيب به قرينه «فولتير» شاعر الفرنسية وفيلسوفها، وأصيب به كثيرون غيرهم في مختلف العصور والبيئات، فجميعهم يختلفون كل الاختلاف عن هذه الشخصيات المرتجلة،

والبون بينهما بعيد، والفارق شاسع كبير؛ فهما يجتمعان في حبّ العظمة، ولكن دافعه عند أولئك طموح سام، وعلم غزير، وبيان قوي، ونفس عزيزة، وشجاعة جبارة، وتضحية غالية. ويعزِّزها عند هؤلاء غرور سافل، وجهل مركَّب، ووعي قبيح، ونفس وضيعة، ومطمع دنيء.

أما زعيم الأمة وقائدها فيختلف كل الاختلاف عن هؤلاء جميعاً، فهو يخلقه الله متحلِّياً بصفات الزعامة، مدجَّجاً بسلاح القيادة: صفات لا يراها هو في نفسه، ولكنها تُرى من قِبَل الأمة فيه، وخصال لا يتبيّنها هو في نفسه، ولكن، تلمسها الأمة فيه. يقوم بأعمال جليلة سامية، يقوده إليها إلهام من الله لا يقدِّر هو سموّها، بل يراها أعمالاً عادية، ولكن الأمة تقدِّر سمَّوها، وتدرك عظيم فائدتها، ومن دون أن يشعر يجد نفسه مساقاً قهراً، والأمة من ورائه تدفعه إلى قمة الزعامة، حيث تضع له سُلَّماً من قلوبها وأفئدتها وتقول: ارتقِ! وتأتيه بزمام القيادة مصنوعاً من أمانيها الغالية وتقول له: أمسك.

أما هذه الإمَّعات من الشخصيات المرتجَلة التي لا يُعرَف لها ماضٍ، ولا حاضر، ولا حتى المراجل التي طُبخت فيها، فتَنْبت بسرعة كالفقاقيع، وتأتي تنفخ أوداجها وهي تحاول التسلُّق

بمنابر الزعامة الخطيرة، والتشبث بقمم العظمة، حتى إذا ما حاولت الأمة إبعادها في رفق ولين صرخوا في وجهها، وذهبوا يشتمونها ويصمونها بالجهل والانحطاط لأنها لم تنخدع لهم ولدجلهم.

وهناك تغضب الأمة غضبتها، فتلقي بهم في الدرك السافل، فتنطفئ هذه الشخصيات بسرعة، وهي مرتجَلة في كلتا الحالتين، وتُطوى، هذه الشخصيات وصحائفها إلى الأبد مُكَلَّلة بالخزي والعار، إكليل كل امرئ لا يعرف قدر نفسه.

***



الأستاذ

مسرحية في فصل واحد

«كان عبد الحق عاملاً بسيطاً من عامة الناس، أمّيّاً، لم يتلقَّ من العلوم شيئاً، لا قليلاً ولا كثيراً. لا يعرفه أحد سوى زملائه في العمل وبعض جيرانه في الحي المتواضع الذي يسكنه لضآلة مركزه الاجتماعي، ولانصرافه عن الناس بالكدّ في سبيل العيش.

وذات يوم توفِّي عمّه الثري ـ وكان وارثه الوحيد ـ فاستولى على جميع أمواله وثروته الطائلة، وأصبح من كبار الأثرياء، يُشار له بالبنان، وما كاد يشيع الخبر حتى تجمهر الزوار على باب داره من مهنِّئين، ومتسوِّلين، وفضوليين».

(المنظر: قاعة فسيحة في دار عمّه التي ورثها، مؤثّثة بأثاث شرقي من زرابي وأرائك. يبدو عبد الحق في صدر القاعة، وهو رجل في العقد الخامس من عمره ضخم الجثة يرتدي أثواباً جديدة فضفاضة، لبسها على عجل دون ترتيب أو نظام.).

(عبدالحق- «سلمان الخادم»)

عبد الحق: سلمان!... سلمان.

سلمان: نعم سيّدي... أمرك؟

عبد الحق (وحده)**:** نعم سيِّدي... أمرك... ما أعذبها من كلمات! (لسلمان): سلمان، أنت الذي قضيت جلّ حياتك مع عمي- رحمه الله-، وفي خدمته، أرشدني لما يجب عليَّ عمله من لباس وأحاديث وغير ذلك، فإني لا أريد أن أظهر بمظهر الغباء أمام الناس، وأنت- على كل حال- لك خبرة بحياة القصور وحياة كبار الأثرياء مثلي، ولا يخفى عنك هذه الجموع الغفيرة من الزوّار!

سلمان: ما دمت قد لجأت إليَّ يا سيدي، واسترشدتني، فإن نصيحتي إليك هي أن تغلق بابك في وجوه هؤلاء الزوّار، ولا حاجة لك بهم، فإنك لن تستفيد منهم شيئاً يعود عليك بالنفع.

عبد الحق: لا... لا... لا داعي إلى رَدِّهم، فإنهم لن يكلفوني

أكثر من فنجان من القهوة وقطعة من الحلوى، ثم إن الخير كثير... إني لا أوافقك على ذلك. لا تغلق الباب، دعهم يأتون، فإني في حاجة إليهم، أتعلَّم عليهم الحياة الجديدة، حياة الأثرياء وخيرة الناس.

سلمان: إن خيرة الناس يا سيدي عبد الحق، لا يأتون إليك، ولا يعبؤون بك ولا بمالك، وثِقْ بأنه لا يهتمّ بك إلا ذوو المطامع المختلفة في أموالك.

(يُسمع طرق على الباب)

عبد الحق (يعتدل في جلسته ويصلح من هندامه): سلمان!... أسرع... افتح الباب لهؤلاء الزوار، وأعدّ لهم القهوة والحلويات. أسرع.

سلمان: أمرك يا سيدي **(يخرج ويعود صحبة ثلاثة شبان):** السلام عليكم؛ هذا وفد الأدب والفن يا حضرة الأستاذ، جاءك زائراً ومهنِّئاً.

عبد الحق: أهلاً ومرحباً بكم. تفضّلوا. سلمان، أحضرالقهوة والحلويات للسادة. **(سلمان يخرج).**

عبدالحق: ما مهنتكم؟

زكي: نحن أدباء يا حضرة الأستاذ الجليل...

عبد الحق: إنكم تجهلون اسمي على ما أظن، فإن اسمي «عبدالحق»، وليس اسمي «الأستاذ».

زكي: إن اسمكم مشهور عند عامّة الناس وخاصّتهم.

عبد الحق (يلمس رأسه): يا لطيف! في رأسي نار!

زكي: وإنما لفظة الأستاذ، تعبير الأدباء ولقبهم المبجَّل، يلقبون به من شاؤوا من الأفاضل والمثقَّفين، ولا ريب عندنا في أنكم من كبارهم.

عبد الحق: من كبارهم! هيه.. من كبارهم. الخير كثير. هيه، وما معنى أدباء هذه؟

زكي (متلعثماً): أدباء؟ يعني... أدباء! يعني أناساً كباراً...

عبد الحق: ما ألطفكم! وما أعذب كلامكم من كلام! وهل يمكنكم أن تجعلوا مني أديباً مثلكم؟ إن لديَّ مالاً كثيراً!

زكي: يا سلام... مال كثير! نتشرّف... نتشرّف- يا سعادة الأستاذ الجليل- أن نجعلكم رئيساً علينا، وإن الآداب والفنون تتشرف وتفتخر اليوم بسعادتكم. ومن ذا الذي ينهض بها غيركم؟

عبد الحق: الخير كثير. تستطيعون أن تعتمدوا عليّ. يكون خيراً إن شاء الله. وماذا أعمل؟

زكي: يا سلام! السؤال الجميل... أولاً: بلغنا يا حضرة الأستاذ، أنكم تنوون ـ في هذه الأيام ـ زفاف ابنتكم على شخص من عامّة الناس، لا يمتّ للأدب والفن بِصِلة.

عبد الحق: هذا صحيح. إنه قريبي، يدعى ناصر، سيتخرج قريباً في مدرسة الصنائع. إنه قريبي وليس من عامة الناس.

زكي: مدرسة الصنائع! رجل عمل! رجل غليظ! رجال الأعمال ـ يا سعادة الأستاذ ـ لا يصلحون للأدب. ولا يخفى عنك أن بنت الأديب لا تتزوج إلا أديباً مثله.

عبد الحق: عجيب، بنت الأديب لا تتزوج إلا أديباً؟!

أحد الشبان: أجل، ذلك هو قانون الأدب كما لا يخفى عنك!

عبد الحق: فاتني ذلك. وكيف العمل الآن؟

أحد الشبان: الأولى أن تعدلوا عن هذا الزواج، وتبحثوا لابنتكم عَمَّن يليق بها من رجال الآداب البارزين.

عبد الحق: هذا حق. أبحث لها عمن يليق بها من رجال الآداب البارزين. سأفعل ذلك.

أحد الحاضرين: إن الأستاذ زكي لَأَوْلى بها من غيره، وهو أديب بارز، فاضل، ذو مركز اجتماعي عظيم، يشرِّفها، ويرفع من مقامها.

زكي (في تواضع): أستغفر الله. أنا لست غنيّاً، ولا أظن نفسي كفئاً لها، لأن هذا العصر عصر المادة والمال.

أحد الحاضرين: وأي شيء يكون المال بالنسبة لثروتكم الأدبية الطائلة يا أستاذ زكي؟

زكي: أنا لا أقول شيئاً الكلمة للأستاذ عبد الحق.

عبد الحق: الحق مع السيد. الخير كثير. لا يهمّك المال. الخير كثير.

زكي: الخير كثير. ما أحلى هذا الكلام من فمك يا سيدي الأستاذ! الخير كثير. كلمة عذبة، وعليه فإنني أشكركم على حسن ظنكم بي، وإن هذا ـ لعمري ـ لمن أجلّ المساعدات للآداب والفنون! لأن الأدب لن يترقّى إلا برقيّ رجاله. ولا يسعنا إلا أن نستأذنكم في الانصراف، ونحن منتظرون إشارتكم لعقد القران.

عبد الحق: بارك الله فيكم. سأخبركم بذلك في الوقت المناسب. **(يسلِّمون عليه وينصرفون)**

عبد الحق: سلمان يا سلمان!

سلمان (يظهر): نعم سيدي، ماذا تريد؟

عبد الحق (في تعاظم): ماذا أريد؟ قبل أي شيء، لا أسمح

لك من اليوم أن تلقِّبني بهذه الألقاب البالية! ألقاب عامة الناس.

سلمان: حسناً يا سيدي، بأيّ اسم تريد أن أدعوك؟

عبدالحق: «بالأستاذ» ادعني بالأستاذ. قل «ماذا يريد الأستاذ»، هذا هو لقبي، لقب كبار الناس.

سلمان: أستاذ. لقب جديد، إني لم أفهم يا سيدي، ماذا تعني؟

عبد الحق: أجل إنك لا تفهم. وقد قضيت طول حياتك خادماً... لقد كان وفد الأدباء ـ كبار الناس ـ عندي هنا، وقد لقَّبوني بهذا اللقب، وجعلوني رئيساً لهم.

سلمان (ضاحكاً): أولئك المحتالون النصابون... إني أعرفهم جيداً ياسيدي، وأعرف أعمالهم.

عبد الحق (صارخاً): اخرس! أيها الوقح، تصف الأدباء كبار الناس بالاحتيال؟ إذاً، أنا محتال مثلهم ما دمت رئيساً لهم؟

سلمان (في حيرة): عفوك يا سيدي. سامحني أخطأت.

عبد الحق (هازئاً): عفوك يا سيدي! ألم أمنعك الآن من تلقيبي بهذا الاسم؟. قل «عفوك يا أستاذ».

سلمان: نعم... نعم... نسيت، عفوك يا أستاذ! سامحني يا

أستاذ.

عبد الحق: أحسنت، لقد سامحتك هذه المرة، على ألا تعود إلى مثله.

سلمان: ثم ماذا؟ يا... يا أستاذ...!

عبد الحق: ثم إني سأُزَوِّج زينب بالأستاذ زكي؛ لأن بنت الأديب لا تتزوَّج إلا أديباً مثله، هذا هو قانون الأدب.

سلمان: لكن، يا سيدي...

عبد الحق: لكن... ماذا؟!

سلمان: لكن يا أستاذ! و«ناصر» قريبك وخطيبها؟

عبد الحق: ناصر. رجل أعمال. قانون الأدب يمنعه من التزوُّج بها. ذلك هو قانون الأدب.

سلمان: إنك مخطئ- يا سيدي- فيما عزمت عليه، وستندم.

عبد الحق: يا للوقاحة! يا لقلّة الأدب! أتجرؤ عليّ- أيها الخادم- وتقول مثل هذا الكلام في حضرتي، أنا الأستاذ؟ اغرُب عن وجهي.

(زوجته «رتيبة» تسمع الصياح والضوضاء، فتدخل مستفسرة.)

رتيبة: ما هذا الصياح؟ ماذا جرى؟

سلمان: تعالي- يا سيدتي- لتسمعي العجائب! أظن أن

سيدي أُصيب في عقله! إنه يهذي منذ لحظة، يقول: إنه أستاذ، وأديب، وقال إنه يريد أن يزوِّج زينب من رجل محتال، أعرفه جيداً، يقول عنه سيدي إنه أديب كبير، ولا أدري ما لنا ولهؤلاء الأدباء!.

عبد الحق: أما تنتهي- أيها الوقح- من إهانتي، وجرح كرامتي، ألم آمرك بأن لا تدعُني بغير لقب الأستاذ؟ ثم بأي حق تتطاول بكلامك هذا على رجال الأدب؟

رتيبة (لزوجها): ماذا يا عبد الحق؟ أصحيح ما قاله سلمان؟

عبد الحق: لا تقولي عبد الحق، أيتها المرأة، قليلة الأدب! قولي «الأستاذ».

رتيبة (صارخة باكية): وا مصيبتاه! حقّاً، لقد أُصيب الرجل في عقله!

(تظهر ابنتها زينب.)

زينب: ماذا جرى يا أمّاه؟ أأُصيب أبي بمكروه؟

عبد الحق: لماذا تقولين أبي- أيتها الشقية- ولا تقولين «الأستاذ»؟ اتفقتم كلّكم على تجريدي من لقبي المبجَّل، لقب الأدباء وكبار الناس.

زينب: أدباء؟ أيّ شيء «أدباء» هذه؟

عبد الحق: أدباء... لا تعرفين الأدباء!؟ هم الذين أريد أن أزوِّجك أحدهم؛ لأن بنت الأديب لا تتزوَّج إلا بأديب؛ هذا هو قانون الأدب.

(يدخل ناصرخطيب زينب، فتسرع رتيبة نحوه باكية)

رتيبة: الحقنا يا ناصر، يا ابني، إن عمك أُصيب في عقله، فإنه لم يفتر عن الهذيان منذ ساعة، يقول عن نفسه إنه من رجال الأدب، وإنه يريد تزويج زينب من أديب مثله، ويأبى أن ندعوه بغير «الأستاذ ».

ناصر (يطمئن عمّته، ويتقدّم من عبد الحق): ما هذا يا سيدي الأستاذ؟ هل من جديد؟

عبد الحق (مرسلاً زفرة): الحمد لله... ها قد أتى أخيراً من يقدِّرني، ويعرف مقامي. تعالَ- يا ابني- انظر إلى هؤلاء الجهلاء! جعلوني مصاباً في عقلي لأني منعتهم من إهانتي، وأرغمتهم على احترام لقبي المشرّف الذي أهداني إياه وفد الأدباء هذا الصباح!

ناصر: اعذرهم يا أستاذ، إنهم لا يعرفون قيمة الأدب، ولا يعرف قيمة الأدب إلا أهله!

عبد الحق: وهل أنت أديب يا ناصر؟

ناصر: بالتأكيد... ومن الكبار.

عبد الحق: حمداً لله. كنت أظنك غير ذلك، ولهذا عزمت على أن أزوِّج زينب من غيرك؛ لأن قانون الأدب ـ كما لا يخفى عنك ـ يمنع أن تتزوَّج بنت الأديب بغير الأديب.

ناصر: هذا حقّ... إني أعرف ذلك، ودرسته جيداً.

ثم هل يمكن أن يكون قريب الأديب، أو زوجه، أو ابنته وحتى خادمه قليلي الأدب؟

عبد الحق: صحيح، لقد فاتني ذلك. إذاً، كلنا أدباء؟

ناصر: ومن يشكّ في ذلك؟ كلنا أدباء وأنت السبب في ذلك.

عبد الحق: أنا السبب... أجل أنا السبب... اذهب ـ إذاً ـ وادعُ القاضي ليعقد قرانكما، وليبارك الله فيكما وفي أبنائكما، ويجعلهم من كبار الأدباء والأساتذة.

***



سيّدي الحاجّ

كان ذلك إبان الحرب العالمية الأخيرة، وكنت يومئذ مستقرّاً في مكة المكرَّمة، أعاني شوقاً مبِّرحاً، وحنيناً عارماً إلى الوطن والأهل والأصحاب. كانت أخبار الشمال الأفريقي شحيحة جدّاً؛ الرسائل نادرة، وحركة الحجيج منقطعة تماماً عدا وفود صغيرة كانت تأتي على نفقة الحكومة في طائرة خاصة، وكانت هذه الوفود تجمع خليطاً عجيباً من مختلف الطبقات والهيئات، تضمّ الطبيب، والمفتي، والتاجر، والقائد، تجمع العالِم والجاهل، الشباب والشيوخ، كما كانت هذه الرحلة المجّانية تغري بعض الفضوليين الذي لا يهمّهم الإسلام

ولا مناسك الحج، وإنما يأتون للسياحة والتفرُّج على أرض الحجاز. وكنت أبذل كل الجهود للاتّصال بهم، وهم الصلة الوحيدة بيني وبين أرض الوطن، أتنسَّم من أحاديثهم رائحة البلاد وعبير الأهل والأصحاب، ولذلك كنت أستأنس بهم رغم التباين الكبير بيننا؛ تباين في النشأة والتفكير، في الثقافة والاتجاه، ولكن رابطة الوطن كانت كافية لجمعنا وإزالة الفوارق بيننا.

اتصلتُ ذات يوم بحاجّ من هؤلاء الحجيج، وكان الرجل يحتلّ مكاناً مرموقاً في الإدارة الحكومية رغم أنه كان أميّاً لا يحسن العربية ولا الفرنسية، أما الإسلام وقواعده الأولية فلم يسمع بها طيلة حياته رغم سنّه المتقدِّمة، وإن كانت لحيته الكثيفة وهندامه العربي يخدعان الناظر إليه، فيظنه شخصية إسلامية ممتازة من كبار رجالات الدين في المغرب العربي.

زرته يوماً في منزله فرغب أن أرافقه في جولة قصيرة في أسواق أم القرى، وطلبت منه أن يتوضّأ استعداداً لصلاة المغرب، حتى إذا ما أدركنا وقتها أخذنا سبيلنا إلى الحرم دون أن نضطرّ إلى العودة إلى المنزل، وطلب الحاج إبريقاً من الماء، وجلس للوضوء، وبدأ يغسل رجليه، وكنت أنظر إليه مشدوهاً، لم أدرِ

كيف أجعله يلاحظ خطأه، ولكن الخادم الذي كان مكلَّفاً بخدمته، والذي كان معتاداً ـ دون شك ـ على هذا النوع من الحجيج، ابتدره قائلاً: ما هذا الوضوء يا سيدي الحاج؟ أتتوضّأ من رجليك؟

وأجابه سيدي الحاج بكل بساطة، وهو مسترسل في غسل بقية أعضائه بالجملة والتفصيل دون ترتيب: ماذا نعمل هكذا علَّمنا سادتنا!

وسكتَ الخادم، ولعله ظن أن مذهبه الفقهي يجيز هذا الوضوء الذي يبتدئ من الرجلين. وسكتُّ أنا أيضاً، وانتهى صاحبي من وضوئه، ثم ارتدى ملابسه وخرجنا إلى الأسواق.

كان منظرنا مضحكاً: صاحبي بجثّته الضخمة، وعمامته الكبيرة، وقامته فارعة الطول، ولباسه الجزائري العتيق، وأنا إلى جنبه بلباسي الحجازي وجسمي النحيل، ولذلك كنا عرضة لتنكيت المارة وروّاد السوق. وكنت أتحمَّل كل ذلك في سبيل النزر اليسير من أخبار البلاد التي كان صاحبي يجود بها عليّ.

كانت جولتنا حافلة بالمشاكل والمعارك مع مختلف الباعة والتجار؛ لأن صاحبي كان حديد الأعصاب، كلمة ونصفها، ثم يلجأ إلى قاموسه الخاص يُخرج منه ما تيسَّر من الشتائم

والسباب. ولم ينقذنا من مشاكلنا سوى أذان المغرب الذي أخذ يدوّي في الفضاء، ورجال الأمر بالمعروف يصيحون: الصلاة... الصلاة... وهم يسوقون الناس إلى المسجد.
توجَّهنا لفورنا إلى المسجد، وانحنى عليَّ صاحبي، ونحن في طريقنا، وسألني قائلاً: مولانا! وهذه آش حال فيها؟
قلت: كم فيها؟ في أي شيء؟
قال: هذه الصلاة، التي سنصلّيها الآن! كم عدد ركعاتها؟
وفهمت... فإن الرجل يجهل عدد ركعات الصلاة، وخاف أن يقع في خطئها، فتشجَّع واسترشدني، سَرَّني منه ذلك، وألقيت عليه درساً مختصراً في عدد ركعات كل صلاة، ومتى يجلس ومتى يقوم، ولكن ذلك لم يمنعه من سؤالي عن عدد الركعات كلما توجَّهنا إلى الصلاة... ووجد صاحبي صلاة العشاء طويلة جدّاً، ولهذا قرَّر حذفها من برنامجه وإبدالها براحة في المنزل.
وانتهينا من صلاة المغرب، وأخذنا نتجوَّل في الحرم المكّي الذي كان حافلاً بحلقات الدروس المختلفة، ووقف صاحبي أمام شاب شنقيطي كان يُدرِّس مبادئ الآجرومية لنفر من الصبيان، وما كاد المدرِّس الشاب يشاهد صاحبي يقف عند رأسه حتى اعتراه اضطراب، وقد ظنه عالماً جليلاً من كبار

علماء المغرب العربي، فتلعثم في تقريره، وأخذ يردِّد لتلاميذه هذه الجملة: قام زيد... قلنا: قام زيد... قام زيد.

وقاطعه صاحبي قائلاً: يا شيخ!... وإذا كانت امرأة تقول «قامت زيدة؟»

تبسَّم المدرِّس، واستغرق تلاميذه في الضحك، ولكن صاحبي لم يعجبه موقفهم فقال لي: لماذا يضحكون؟ ألم يُعلِّمهم شيخهم قوله تعالى: «اسأل عن دينك حتى يقولوا: بهلول»؟

قلت لنفسي: ألا في سبيل أخبار الوطن ما أنا متحمل.

انقضت أيام الحجّ بسلام، ورجع سيّدي الحاجّ إلى بلاده بحجّه المبرور وذنبه المغفور، حاملاً معه مختلف التحف والهدايا للأهل والخلّان، متوّجاً اسمه بلقب «الحاج»، تاركاً هذه الذكريات الطريفة التي خلَّدته في ذاكرتي، وجعلت منه أنموذجاً بشريّاً ممتازاً.

***



يحيى الضَّيف

«لو قرأ يحيى في صغره لأتعبنا في كبره.»
الشيخ الإبراهيمي

يوم أزمعت أن أدرج «يحيى الضيف» في سلسلة مقالات الميزان التي كنت أنشرها في جريدة البصائر. تساءل بعض الناس من الخاصة والعامة قائلين: ما شأن يحيى الضيف، قيِّم مركز جمعية العلماء وهذه السلسلة من المقالات في رجال العلم والأدب، وليس هو بعالم من العلماء، ولا هو أديب من الأدباء؟

وقلت لهؤلاء: إن لم يكن يحيى عالماً يحمل فوق رأسه عمامة وتحت إبطه كتاباً، وهو إن لم يكن خطيباً في المنابر ولا واعظاً في المجالس ولا كاتباً في الجرائد، فإن له قيمته في المجتمع، وله مركزه في دنيا العلم والأدب، لأنه فيلسوف... سيضحك مني أولئك الذين أنحوا عليَّ باللائمة يومئذ، وسيقولون! أين درس يحيى الضيف الفلسفة؟ وفي أية جامعة تخرَّج؟ والجواب أن الفلسفة الحقّة لا تُدرَّس، وأن جامعتها الحياة، وأستاذها الزمن، فهو من أولئك الفلاسفة الذين تعمَّقوا في درس أنفسهم، ووقفوا على نواحي الضعف والقوة فيها، ولمسوا فيها نواحي الخير والشر، والنفس البشرية واحدة، وإن اختلفت الهياكل التي تحملها والأسماء التي تعرفها. ثم، ألم يجد المرحوم الرافعي في أشيب زبّال أعظم فيلسوف ينقل عنه بدائع الفلسفة وروائع الحِكَم؟

حاول أن تسأل يحيى الضيف عن حياته، واستمع إليه بإمعان وهو يحلِّل لك حياته بفلسفة عميقة، وسوف تجده لا يتردَّد في ذكر الحقيقة عن نفسه، ولو كانت مُرّة جارحة؛ لأن الحقيقة عنده جوهرة ثمينة يجب أن تبرز، ونفسه شيء تافه، لا حق لها في أن تقف حجر عثرة في طريق الحقيقة. ومن منا يستطيع

أن يحلِّل نفسه، ويذكر خيرها وشرها وعيوبها ومحاسنها؟ إننا لا نستطيع، لأننا نعيش في إطار المظاهر والأنانية؛ وذلك لأننا لسنا فلاسفة! أما يحيى الفيلسوف فإنه لا يشعر بهذه الأنانية، وشخصيته لا تساوي في نظره طمس حقيقة من الحقائق مهما كانت هذه الحقيقة صغيرة. وهو مستعدّ أن يذكر لك عن نفسه كل ما يعرف عنها. وهو دوماً مشغول بالبحث عن عيوب نفسه وتحليل هذه العيوب، وما نفسه إلا أنموذج لكل نفس بشرية يُجري عليها تجاربه. دعنا نوجِّه إليه سؤالاً، ولنستمع إلى جوابه، ها هو أمامنا بجثّته الضخمة وابتسامته العريضة التي تشبه ابتسامة حمار الحكيم ومكنسته في يده.

ـ كيف جئت إلى هذه الدنيا يا يحيى؟

ـ لا أذكر كيف جئت إلى هذه الدنيا لأنني كنت صغيراً. ولكن، سمعت والدتي تقول: إني جئت إليها والشمس في برج القوس ترسل عليّ أشعتها منعكسة في سعدية المشتري ونحسية عطارد، ولهذا فلا غرابة ـ إذاً ـ في أن تبدو لكم حياتي كلها سلسلة من المتناقضات: عالم مع العلماء، وأديب مع الأدباء، جاهل مع الجهلاء، فنان في أوساط الفنانين، عبقري في دنيا الجهّال، وجاهل بين العباقرة تواضعاً، وأنا

مع كل ذلك فيلسوف بطبعي. وكل هذه الصفات تغمرها لطافة في نوع من الدهاء يحيط به نفاق كبير، أفهم المجتمع، وأعرف أن شرَّه أكثر من خيره، أعرف أن الحياة كلها آلام وآثام، ولهذا تجدني دائماً أضحك منها، وأضحك من الذين ينظرون إليها بعين الاهتمام والإجلال.

ـ إنك تفهم الحياة على حقيقتها.

ـ نعم أفهم باطنها وظاهرها مع أن درجتي لا تعدو درجة كنّاس من الدرجة الثالثة.

ـ إنك كثير التواضع يا حضرة الفيلسوف!

ـ لا، لا يا مولاي، ليس هناك تواضع، وإنما هذه هي الحقيقة.

ـ هل أنت سعيد في الحياة؟

ـ وهل في الحياة سعادة؟ وإنما أستطيع أن أقول لكم إن أسعد أيامي هي التي أقضيها في معاشرة العلماء وخدمة جمعيتهم، ولا سيما الشيخ عبد اللطيف سلطاني رئيس المركز الذي أخشاه أكثر من عذاب النار.

ـ وهل استفدت من مصاحبتك للعلماء شيئاً يُذكر؟

ـ أجل، فقد استفدت من الشيخ البشير حكمته وتواضعه وتفانيه في كل ما يباشر من الأعمال، واستفدت من الشيخ

خير الدين فراسته ودهاءه ودقّة ملاحظته، ونلت من الشيخ عبد اللطيف حسابه العسير لحركات وسكنات العاملين معه، حتى إني أرجو الله ألا يعيِّنه «أكسبيرا» لتصفية حساباتي يوم القيامة، وقد أصبحت بطني وعاء لكل هذه الفوائد، وتستطيع أن تفسِّر ضخامتها بعدم هضم ما استفدت؛ لأن معدتي لا تقوى على الهضم وإن كانت تهضم «شخشوخة ـ شكشوكة» عثمان بوقطاية المذيع المشهور، التي أحبها إلى حَدّ أني أبيع ديني ودنياي في سبيلها.

وإذا سألت يحيى الضيف عن هذه السرعة التي يعيش فيها وعن هذه الحركة الدائمة التي تغمره، أجابك أن مبعثها القلق، وأنه يتعب نفسه كثيراً ليلحق بركب المعالي، ولهذا تجده يقرأ ويعيد، ويقرأ، ويعيد، إلى أن يتبلَّد ذهنه، فلا يحسن كيف يقرأ، ولا يستفيد مما يقرأ، ثم يبتسم لك ابتسامته المعروفة ويقول لك: إني أريد أن أعرف كل شيء، وأنا مع ذلك لا أعرف شيئاً، وإني إلى الآن عاجز عن كتابة رسالة ولو قصيرة، وقادر على تأليف كتاب بأكمله من حيث لا أشعر.

لقد قضت على صاحبنا فلسفته، فأنكر نفسه، وأنكر معارفه، وهو محتاج إلى قليل من الإيمان بنفسه وعقله ليُخرج للناس

روائع ستبقى خالدة لأنها ستكون مطبوعة بطابع الصدق وطابع الصراحة. ذلك الطابع الذي يمتاز به يحيى عن غيره، والذي جعله محبوباً من الجميع لا يكره أحداً، ولا يكرهه أحد. يعرف بعض الناس يحيى قَيِّم مركز جمعية العلماء؛ لأنهم لا يرونه إلا دائباً على تنظيف قاعات المركز ومكاتبه، ويعرفه آخرون ممثِّلاً موهوباً لأنهم لا يشاهدونه إلا على خشبة المسرح، أو يسمعونه على أمواج الأثير يمثِّل بالعامية والفصحى، ينتقل من شخصية إلى شخصية، فيحسن الانتقال، ويحسن التمثيل. ويعرفه آخرون مؤلِّف روايات مسرحية وطرائف أدبية وناقداً حصيفاً، وأعرفه أنا فيلسوفاً عميقاً وكاتباً مجيداً، تعجبني فلسفته، ويعجبني نثره الفصيح وشعره الملحون، ويعجبني- فوق كل ذلك- تفهُّمه للحياة ورضاؤه بنصيبه الضئيل منها دون تبرُّم أو تشكٍّ، وتلك- لعمري- الفلسفة، وكذلك حقيقتها.

هذا هو يحيى الضيف الذي بلغت ضخامة جثته وزن الفيل، وبلغت خفّة روحه وزن الريشة. وإذا أردت أيها القارئ أن تعرفه عن كثب فما عليك إلا أن تقوم بزيارة لمركز جمعية العلماء بمدينة الجزائر قبل حضور المدير أو بعد انصرافه،

وستجد يحيى الضيف يزأر كأنه أسد في قفص. اقتربْ منه ولا تخَفْ فستجده مستعدّاً لاستدعائك إلى صالونه الجميل ليقدِّم لك فنجاناً من القهوة وقطعة من الحلوى وطرائف من الأدب والفلسفة، وإذا لم يستدعك بنفسه اطلب ذلك منه فسيسرّه ذلك كثيراً، لأنه رجل كريم مفتون بهذا الكرم إلى حَدّ العبادة.

***



سي زعرور

(ملاحظة: اقتبست هذه الشخصية من الفرنسية، وأثبتُّها هنا لأني وجدت فيها أنموذجاً حيّاً خالداً يوجد في كل مكان وفي كل زمان. كما أخرجت منها مسرحية في ثلاثة فصول تحت عنوان «النائب المحترم»).

كان الشيخ زعرور، أو سي زعرور، كما يسمّيه زملاؤه، معلِّماً بسيطاً في مدرسة ابتدائية حرة، قانعاً بالحياة، وبنصيبه منها، راضياً عن نفسه وعن عمله؛ لأنه كان رجلاً تقيّاً فاضلاً نزيهاً، يعتقد الخير في الدنيا، ويعتقد الصلاح في البشر، لا يعرف

الشرّ، ولا يتصوّر صدوره من الناس. كان يعيش في برجه العاجي، في دنيا فاضلة لا تطرق أبوابها الرذيلة، ولا يطأ أرضها الفساد. وكان يعيش، مع سي زعرور، رفقة طيِّبة من الزملاء يشاركونه عمله، ويقاسمونه بؤسه، ولكنهم لا يشاركونه نظرته إلى الحياة، ولا يعتقدون عقيدته في البشرية.

كانت تلك المدرسة التي يعلِّم بهاسي زعرور مِلكاً لمديرها الجشع، يستغلّها استغلالاً ماديّاً فظيعاً، يبحث يوميّاً عن تنمية موارده بشتى الوسائل والطرق؛ فقد كان على طرف نقيض من سي زعرور الذي يرى المادة عرضاً زائلاً من أعراض الدنيا، لا يستحقّ العناية والاهتمام.

وذات يوم، بينما كان سي زعرور يقوم ـ قبل حلول موعد الدرس ـ بتسبيق درس لأحد تلاميذه المتأخِّرين، إذ دخل عليه المدير ببطنه المنتفخة، وسمة الغضب تعلو وجهه، وابتدره بسرد المادة السابعة والعشرين من لائحة المدرسة الداخلية، التي توجب على كل معلِّم من معلِّمي المدرسة، يقوم بإعطاء دروس خاصة، أن يدفع للمدير خُمس مدخول هذه الدروس. واتهم المدير سي زعرور بإخفائه أمر هذه الدروس الخاصة واستغلاله لمدخولها وحده دون سواه... وعبثاً حاول سي زعرور إفهامه أنها دروس خاصة مجّانية مؤقّتة يروم منها إلحاق

التلميذ بزملائه في فن متأخر فيه؛ لأن الرجل لا يفهم غير المادة، ولا يعرف لكلمة «المجّانية» أثراً في قاموسه. ولهذا اشتدّ به الغضب، واتّهم المعلم ببثّ روح التمرُّد في التلاميذ ومحاولاته إفلاس صندوق المدرسة، وما كان منه إلا أن ألزمه بدفع خُمس أجرة هذه الدروس، وقدَّر له مدخولها الخيالي بنفسه. وأراد زعرور استعطاف مديره، وهو يعرف جيداً أنه يُسَرُّ كثيراً لانخراط تلاميذ جدد في مدرسته، فقال له: سيدي المدير، أظن أني سأُدخِل تلميذاً جديداً في مدرستنا.

وكان لهذا النبأ سحره الفعال في نفس المدير، فانفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة مسحت عقد الغضب من فوق جبينه، وابتدره صارخاً: أحقّاً؟ أرجو ألا يكون من نوع تلميذك هذا الذي تلقَّنه درساً دون مقابل؟

ـ لا يا سيدي المدير، إنه تلميذ ذكي مجتهد.

ـ لا... لا... لا أقصد ذلك، وإنما أقصد إذا ما كان غنيّاً وأهله يقبلون شروط المدرسة.

ـ طبعاً، يا سيدي المدير، ما في ذلك شك.

ـ اكتب ـ إذاً ـ الشروط، سأمليها عليك، وإنني أعتمد على لباقتك في عرضها عليهم: خمسمئة فرنك للشهر الدراسي، وثلاثة أشهر مقدّماً. وطبعاً يتلقّى عليّ أنا دروساً خاصة، وأجرة

الحصة الواحدة من هذه الدروس مئتان من الفرنكات، مئة فرنك شهريّاً مقابل ما يستهلكه من الماء للشرب وخلافه، ومئة أخرى مقابل الأدوية التي ربما احتجنا إلى إسعافه بها».

أظن أن هذه الشروط مقبولة.

ـ دون شكّ يا سيدي المدير.

ـ أسرع به ـ إذاً ـ إليّ، سأعدّ له أحسن البقاع في مدرستي.

وكان سي زعرور قد قَدَّم مطلباً منذ عهد بعيد، يطلب فيه وسام المعارف الذي يرى نفسه يستحقّه عن جدارة، وبقي مطلبه دون جواب، وكان مديره على علم بذلك، وأراد أن يبادله جميلاً بجميل، ومنّة بأختها، فقال له: لقد قابلت شخصاً عظيماً اليوم، وحدّثته في شأن طلبك لوسام المعارف، وأفادني أنهم منحوك الوسام.

ـ ماذا تقول؟ أحقّاً منحوني الوسام؟

ـ نعم... لكنهم لا يستطيعون أن يمنحوك وساماً حقيقيّاً، ولهذا فقد منحوك وساماً معنويّاً. وحارَ سي زعرور في هذه العبارة، ولم يدرك كنه هذا الوسام المعنوي، ولكن مديره أسعفه بالشرح والتحليل وأفاده بقوله: معنويّاً، يعني أنهم منحوك هذا الوسام دون أن يمنحوك إياه. هل فهمت؟

ـ أجل فهمت. منحوني دون أن يمنحوني، فهو عندي في

المعنى دون أن يكون عندي في الحقيقة.

ـ أحسنت... وهذا شرف عظيم يعود فضله إلى الجهود التي بذلتها أنا في هذا الشأن.

شَكَر سي زعرور مديره، وودَّعه إلى الباب، وبقي وحده تغمره نشوة السرور والبهجة بوسامه المعنوي الجديد. وسارت الأيام تباعاً، وساءت الأحوال بين المدير وزعرور؛ لأن هذا الأخير لم يبرّ بوعده، ولم يدخل التلميذ الجديد الذي وعد به إلى المدرسة، وأسَرَّ المدير في نفسه، وبقي يتربَّص الفرص للانتقام منه.

كان المدير في مكتبه ذات صباح إذ دخل عليه والد تلميذ، وبيده ورقة اختبار ابنه، وهو يُرغي ويُزبد ساخطاً على النتائج السيئة التي أحرزها ابنه في اختباره الثلاثي، وخشي المدير أن تخسر ـ من جراء ذلك ـ مدرسته تلميذاً، أو بالأحرى أن يخسر جيبه مورداً، فخَفَّف من حدّة غضب الرجل، وأفاده أن ابنه من خيرة تلاميذ المدرسة وأذكاهم، يمثل المكانة الأولى من قسمه، وإنما أخطأ الكاتب في نقل النتيجة عن السجل الأساسي، ووعده بإصلاح هذا الخطأ حالاً. توجَّه الاثنان إلى قسم سي زعرور، وحاول المديرـ بلباقتهـ أن يُفهم هذا الأخير الغرض من زيارته، ولكنه خيَّب ظنه وفاجأه بقوله: إن

هذا التلميذ بليد، كثير التأخُّر، قليل العمل، ولهذا فلا غرابة إذا ما أحرز هذه النتيجة السيئة.

فقاطعه مديره قائلاً: لا... لا... إنك مخطئ، فمن دون شك أن الكاتب أخطأ في نقل النتيجة عن السجل، ولا بد أن هذه الأصفار عشرات، وغمزه بعينه، ولكن زعرور الساذج لم يفهم مراده، وأفاده أنه لا يعرف هذا الكاتب الذي يعنيه، وأنه ينقل النتائج بنفسه، وأطلع الوالد على السجلّ الذي كان فوق مكتبه وأراه الأصفار المثبتة بالحبر الأحمر أمام اسم التلميذ، الأمر الذي أعاد حدّة هذا الوالد المفجوع في ابنه، ورفع من درجة حرارة غضبه، فتبرَّع للمعلم والمدير والمدرسة بنصيب وافر من الشتائم، وأقسم بأغلظ الأيمان ألا يعود ابنه إلى هذه المدرسة. وطبعاً، ما كان من حضرة المدير إلا أن طرد سي زعرور من عمله وهو يقسم ـ أيضاً ـ بأغلظ الأيمان ألا تطأ رجلاه مدرسته بعد الآن.

كان سي زعرور يقوم بإعطاء دروس باللغة العربية خاصّة لطفل أوروبي كان يعيش مع خالته، وكانت هذه السيدة تعيش مع نائب تساعده في نصب «أصيل» من نوّاب المجلس البلدي تساعده في نصب حبائله لاقتناص أموال الشعب وخزينة البلدية، وتقاسمه الأرباح دون المسؤوليات. كان الاثنان

جالسين في خلوة يدبِّران أمراً يتوسَّمان من ورائه أرباحاً جزيلة، واحتاج الأمر إلى شخص ثالث، شخص يتقدَّم لإبرام الصفقة بناء على تزكية النائب المحترم. حار الاثنان في إيجاد الشخص، وقد طلب منهما عملاؤهم السابقون أجوراً باهظة لم يرضيا بها، ولم يرضَ العملاء غيرها.

كان النائب وزميلته في حيرة من أمرهما إذ دخل سي زعرور يجرّ أذياله قاصداً حجرة الطفل لتلقينه درسه المعتاد، وما كادت السيدة تشاهده حتى هبط عليها الوحي، وعرضت على صديقها استخدامه لهذا الغرض وسواه من الأمور والأعمال، وذهبت تطري سذاجته، وتثني على جهله بالحياة ودقائقها. واستُدعي المعلِّم الساذج إلى حظيرة الذئاب، وعرضا عليه العمل معهما، وأغرياه براتب شهري مضاعف عما كان يتقاضاه سابقاً في مدرسته. سُرَّ سي زعرور للأمر، وحمد الله الذي عوَّضه بدل درهمه ديناراً، واستفسر عن نوع العمل فأفاداه أنه عمل إداري بسيط لا يعدو توقيع العقود التجارية وتسلُّم المبالغ المالية من إدارة البلدية والشركات التجارية. وقَّع سي زعرور على أول عقد، وتمّت الصفقة التي كان النائب وزميلته ينتظران إنهاءها بفارغ الصبر. توالت الأعمال وتبعتها الأرباح، وشاء القدر أن يطّلع زعرور على أسرار القوم،

وأن يعرف كنه العمل الشائن الذي هو قائم به، فثار ضميره مؤنِّباً، وحرمه لذّة العيش، وأغاظه أن يفقد شرفه، ويخسر فضله وقد ضحّى في سبيلهما بكل شيء، وتحمَّل من أجلهما الفاقة والاحتياج. وعاد بذاكرته إلى مدرسته، فبدت له جنة، وإلى مديره وزملائه فبدوا له ملائكة، فثار على رفيقيه، وهدَّدهما بالفضيحة، ولكنهما هدَّداه بإلقائه في غياهب السجن، فكلّ شيء باسمه حتى الرصيد المالي المودع في المصرف.

عاش سي زعرور في اضطراب متواصل وهَمّ وغَمّ عظيمين، كادت كلها تذهب به إلى الجنون، وقرَّر أخيراً أن يشرب الكأس إلى الثمالة، فاستولى على المكتب، واستولى على الأموال، وأعلن انفصاله عنهما، وكل شيء باسمه وتحت مسؤوليته. وانقلب الحمل الوديع ذئباً خطيراً، فكشَّر عن أنيابه، وطرد النائب وصديقته من مكتبه، وحَرَّم عليهما دخوله غير عابئ بالتهديد والوعيد.

سارت أمور زعرور في مجراها المادي المعتاد على خير ما يرام، وقد اكتسب خبرة وتجربة، وصَهَرته الأيام في بوتقتها، وصَبَّته في قالب الحياة، فخرج إنساناً جديداً لا يشبه خَلَفه في شيء إلا في الاسم أو بقية ضمير مثقل بالذنوب وشرف مدنَّس بالرذائل. كان زعرور جالساً في مكتبه ذات يوم يتصفَّح

بريده إذ لفتت نظره علبة صغيرة كانت ضمن الرسائل والرزم، ففتحها قبل سواها، وإذا به يجد داخلها وساماً بنفسجي اللون يحمل إشارة المعارف، تصحبه رسالة رقيقة تثني على معارفه وشرفه، وتطري أخلاقه وفضله، ومع الرسالة تقرير يمنحه وسام المعارف.

ألقى وسامه في درج مهمل، واستمرَّ يتصفّح بريده، وإذا بالباب يُفتح، وبمديره السابق يتقدّم نحوه في خشوع وإذلال راجياً منه أن يشرِّف المدرسة برئاسة حفلتها السنوية.

عبثاً حاول زعرور أن يُفهِم الناس أنه لا يستحقّ الوسام، ولا يستحقّ مجالس الشرف التي يعرضونها عليه بين الفينة والفينة؛ لأنه سارق محتال ينهب أموال الأمة والدولة بشتى طرق الاحتيال. ولكن الناس لم يعبؤوا بقوله، بل عدّوه تواضعاً، وسجّلوه في جملة مناقبه الفاضلة، وحسبهم منه أن يربح كثيراً، ورصيده في المصرف يتضاعف كل يوم، والمال في عرف البشر هو الفضيلة، وهو الشرف، وهو العلم والأدب.

***



التلميذ

«دروت» الذي كان قائداً عظيماً في جيش نابليون الأول، كان في طفولته ابن خبّاز فقير في مدينة «نانسي» بفرنسا، اجتاز أطواره المدرسية في ظروف قاسية وأيام شديدة، حيث كان أبواه في غاية الفاقة وشدة الاحتياج، فلم يسمحا له بالذهاب إلى المدرسة إلا على شرط أن يقوم بجميع أعماله اليومية خير قيام عند عودته منها. ولهذا فقد كان حتماً عليه، بعد الرجوع من المدرسة، أن يقوم بتوزيع الخبز على عملاء أبويه، وأن يساعدهما في بقية الأعمال، وكان يقضي بقية يومه وشطراً من ليله في إنجاز أعمال كثيرة شاقّة، ولا يجد فرصة لأعماله المدرسية، سوى بضع سويعات متأخِّرة من الليل، يشاهَد فيها

الفتى «دروت» وهو منكبّ على دروسه، يلتهمها على ضوء نور الموقد. ولكن هذه العقبات وهذه العراقيل لم تستطع أن تعوّق هذا الفتى عن النجاح، أو تقف في طريقه إلى بلوغ المعالي، فقد تغلب عليها بذكائه المتوقِّد، وحزمه الفذّ، وقوة إرادته النادرة، واستطاع هذا الفتى القروي الفقير، الذي عَدِم وسائل التعليم كلها، أن يشقّ طريقه الوعر، وأن يصل إلى هدفه مكَلَّلاً بالنجاح...

دعونا نستمع إليه يحدثنا بنفسه عن أول اختبار شارك فيه، وهو مسابقة الانخراط في سلك المدرسة العسكرية التي مهَّدت له السبيل إلى المجد حتى أصبح قائداً عظيماً من قوّاد نابليون خَلَّدَ ذكره التاريخ.

قال: حينما كنت ذات يوم، مارّاً في شوارع نانسي أُوزِّع الخبز على عملائنا، لفت نظري منشور كبير مثبت على جدار أحد المباني، يحتوي على إعلان للمدرسة الحربية تعلن فيه موعد مسابقة الالتحاق بها، الذي سيُجرى في مدينة «ميتز». حدثتني نفسي بالاشتراك في هذه المسابقة، والالتحاق بهذه المدرسة الحربية، ولكن كيف يمكن ذلك وقد كان أبواي في غاية الفاقة والاحتياج؟! فلم يكن مدخولها اليومي يقوم بسدِّ حاجاتنا الضرورية، ولكني تحصَّلت ـ مع ذلك ـ على ترخيص

منهم بالسفر لتأدية الاختبار، وتحصَّلت كذلك على مبلغ عشرة فرنكات، وهو كل المدَّخَر عندنا. وكان المبلغ زهيداً جدّاً لا يكفي لأجرة الركوب، فضلاً عن المصاريف الثانوية الأخرى، ولم أجد بدّاً من السفر ماشياً على قدميّ.

وصلتُ مدينة «ميتز» يوم المسابقة نفسها، وتوجَّهت لفوري إلى قاعة الاختبار، وما كدت أبدو في القاعة التي كانت حافلة بعدد كبير من التلاميذ والأساتذة، حتى تلقّاني هذا الجمع الغفير بعاصفة شديدة من الضحك والسخرية. والحق أن حالتي كانت تدعو إلى أكثر من ذلك، فقد كنت نحيفاً ضعيفاً، تكسو ملابسي الريفية المرقَّعة طبقة كثيفة من غبار الطريق، أحمل في يميني عصا غليظة، منتعِلاً حذاءً ريفياً خشناً تحيط به طبقة من الأوحال.

وقفت مضطرباً في وسط القاعة بين ضجيج الضحك والسخرية، ولم أنتبه إلا على أحد المختبرين يخاطبني برقّة وشفقة، ردَّت إليَّ بعض جأشي: ضللت سبيلك، من دون شك يا صديقي! ماذا تريد؟ قال لي الرجل طيب القلب هذا الكلام، فأجبته على الفور: أريد أن أشارك في المسابقة يا سيدي! وما كدت أنطق بهذه الكلمات حتى ارتفع ضجيج الضحك والسخرية من جديد في جميع أركان القاعة.

ـ ولكن، هل تدري أنها مسابقة المدرسة الحربية؟ (قال المختبِر بلطف) وأنت على علم بدون ريب، بالشروط والمواد المعلنة في البرنامج.

ـ سيدي، درستها كلها! (أجبته متلعثماً).

وأجابني السيد: إذن، تفضل اجلس، يا بنيّ وانتظر، فعندما يأتي دورك أدعوك!

ذهبت أنزوي بعيداً في أحد الأركان، ولكن الضحك والسخرية اللاذعة كانا يلاحقاني أينما حللت، ورغم ما كنت فيه من الخجل والاضطراب أخذت أنصت بإمعان إلى أسئلة المختبِرين وأجوبة الطلبة، وما هي إلا لحظة حتى أحسست بروح جديدة تدبّ في جسمي النحيل، حيث تبيَّن لي أنه في استطاعتي الإجابة على هذه الأسئلة كلها. وأخيراً جاء دوري، وسمعت المختبِر ينطق باسمي، وما كدت أقف أمام لجنة الاختبار، حتى امتلأت القاعة بالفضوليين الذين أتوا من هنا وهناك لمشاهدة اختبار الفتى القروي. ابتدرني المختبِر يسألني في قواعد الحساب، وكانت أجوبتي متتابعة، بدون انقطاع ولا اضطراب، حتى سكت المختبِر وسألني متعجِّباً: أين درست الحساب؟

ـ درسته منفرداً يا سيدي! على ضوء موقد مخبزنا، وإذا

تفضَّلتم بسؤالي في بقية البرنامج، سوف تجدوني مستعدّاً للإجابة!

وامتدَّ اختباري ما يقرب من الساعتين، وما كدت أنتهي حتى قام الرجل من مقعده، وتوجَّه نحوي حيث ضمَّني إلى صدره وهو يردّد: أقدِّم إليك تهنئتي وإعجابي يا بنيّ! وأعتقد تماماً أنك ستكون أحد طلبة المدرسة الحربية النجباء!

لا يستطيع أحد أن يتصوَّر السرور الذي غمر قلبي في تلك الساعة! ولكن سروراً أعظم منه كان ينتظرني، وشرفاً لم أكن أتوقَّعه كان مستعدّاً للقائي: وهو أن جميع الطلبة الذين ضحكوا وسخروا مني، تقدَّموا نحوي، وحملوني على أعناقهم في موكب مهيب، حيث طافوا بي مدينة «ميتز» كلها هاتفين باسمي. كان ذلك اليوم أسعد يوم في حياتي!

***

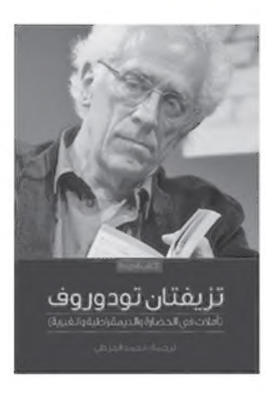
صدر في سلسلة كتاب الدوحة

1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأمَّة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
	• فتنة الحكاية جون أبديك - سينثيا أوزيك - جيل ماكوركل - باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر الحداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي

صدر في سلسلة كتاب الدوحة













يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلة الدوحة الإلكتروني **www.aldohamagazine.com**

صدر في سلسلة كتاب الدوحة





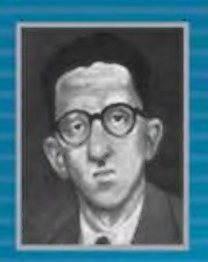








يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلة الدوحة الإلكتروني www.aldohamagazine.com



نماذج بشرية

أحمد رضا حوحو

لهذا الكتاب منافعه الكثيرة كمدوّنة عكست تقليداً أدبياً ظهر في شمال إفريقيا في الخمسينيات، وفي ظل حصار استعماري كاد يقضي على مقوّمات الأمة بعد احتلال دام 132 سنة من التعذيب والتقتيل والتدمير والمحو: الكتابة في ذلك الوقت المؤلم هي- في حَدّ ذاتها- إنجاز وانتصار كبيران ليس من السهل تحقيقهما، وهنا مكمن قوة الأديب الشهيد رضا حوحو .

